مسودة أوليَّة

كتاب دين المؤتفكات

الجزء الأول

المدخل: عارِضٌ مُمطِرٌ

عمرو عبد العزيز

المحتويات

تمهيد

لن يسلُس بحثُنا، ويستنير فهمنا لذلك الكثيب المظلم من آثار اللوطيَّة، إلا بمدخل نستعرض فيه معا جذور بناء الظاهرة اللوطيَّة، الناشبة في المئين من دقائق الفكر الغربي.

وانتخال غابات ذاك الفكر، ثم انتخاب ما يظنُّه الباحث الأسس الكبرى لتكوُّن اللوطيَّة، إقدامٌ ومغامرة =فلا يجسر جادٌّ على الادعاء أنه حاز الاطلاع الكامل، أو الفهم التام الدقيق لكافة جوانب ذاك البحر الفكري والفلسفي الخضم، فالقصور الثقافي حتميٌّ إلا لهواة المزاعم الشقيَّة. وإنني في بحثي هذا، قد بذلتُ وسعي للفهم ثم الانتخاب، ولا يُكلِّف الله نفسا إلا وسعها، سائلا المغفرة على التقصير إن استبان للقارئ بعد ذلك، أسس أخرى أقوى وأظهر مما عرضته.

وقد كان الاختصار هو المبدأ الناظم لبناء هذا المدخل، إيجاز واقتضاب لما نوقِش بصورة متكررة في الثقافة العربيَّة، وبسطٌ نسبي لما أعياني الوقوف على نظيرٍ عربي له، ولم أصادف منه إلا النتف والمقاطع التي لا يحدث بها الغناء وإدراك الأثر /فكان من الأول: الأس النسوي، والنسبوي، والتطوري – ومن الثاني: الأس الثوري، والليبرالي الفرداني.

كما أضفت بعض العوامل العرضيَّة، التي أحسبها ساهمت في تنامي اللوطيَّة، وزدت في الإيجاز إيجازا عندها، لظني أن سهمها لم يكُن قاصِدا للسفك، ولم يكُن إلا أثرا للأسس الكبرى.

ولن يفوت جامع تلك الأسس، ملاحظة أنها، حتى النسبويَّة منها، قد نظَّرت لنوع من أنواع الطوبيا الأرضية، حتى حسِب كل مؤمن بإحدى تلك الفلسفات، أنه ينظُر الخلاصَ وقد فغمه نسيم رياحين جنة الميعاد، التي شيَّدها بعقله وحده.

***

الأس الأول: التطوُّر الشامل

فَقَارُ أكثر الأسس القادمة، هو فلسفة التطور المجتمعي الشامل، خاصة في صورتها الحتميَّة. ومُلخَّص التعريف بها، أنها نظريَّة تؤمن بكون التاريخ الإنساني مستغرق في تقدم مستمر، أحادي الاتجاه عند الأغلبية، يقوم على قدر كبير من تجاوز الماضي ونفي مُنتجاته، والنظر إلى كل مرحلة حديثة على أنها أكثر رقيًّا من السابقة (عارف 1993)، وقد يختلف منظرو تلك النظرية حول الحتميَّة، أو اتجاه التقدُّم =إلا أنهم يجتمعون على الإيمان بأن للتطور المجتمعي مجموعة من القوانين والقواعد التي يمكن استخلاصها من تاريخ تطور المجتمعات الإنسانية / ومُقابل أولئك توجد مجموعة أخرى من الاجتماعيين الذين يرفضون الانشغال بالبحث عن (فلسفة تاريخية) ولا يعترفون بالبحث عن القوانين، إنما ينهمكون فقط بالبحث عن الأحداث التاريخية وتحقيقها. (Sekulic 2007)

ونظرية التطور المجتمعي من بنات عصر التنوير الأوروبي، فقد ظهرت، على سبيل المثال، فكرة التقسيم الثلاثي للتاريخ (بدائي – وسيط – حديث) في كتابات جيامبتيستا فيكو، وآن تِرْجُتْ خلال القرن الثامن عشر، ثم انتشرت أثناء القرن التاسع عشر، قرن الأيدولوجيات، وخاصَّةً بعدما سادت فكرة أوجست كونت، الذي قسَّم التاريخ إلى ثلاث مراحل: لاهوتيَّة بدائية، ثم ميتافيزقيَّة وسيطة، ثم أخيرا، وضعيَّة، حيث يسود العلم ويطَّرِحُ الجهل والخرافات والإيمان بالغيب (Sekulic)، ويصحب تلك السيادة تطور مستمر من الناحيتين الفكرية والمجتمعيَّة /ولم تكُن نظريَّة التطور البيولوجي، في حقيقتها، إلا تبريرا علمويا للنظريَّة الفكرية والاجتماعية التي سادت القرون الأخيرة في أوروبا.

وقد شُيِّدت أكبر أيدولجيات القرن الماضي والعالم الحالي فوق تلك النظريَّة، كالليبراليَّة والماركسيَّة، وعوملت لدهور كمسلمة مفروغ منها في الحقل العلمي قبل الفكري، كما نرى عند عمالقة علماء الاجتماع التاريخيين، مثل دوركاييم وسبنسر.

وإننا، المسلمون، وإن كنا نؤمن طبعا بأن العلم يُطوِّر المجتمع الإنساني والمعرفي من جهة –وإلا ما كان الله سبحانه وتعالى قد حثنا على الغوص في العلم والتعلُّم والبحث– إلا أننا لا نُرفِق ذاك بشيئين: ألا وهما الحتميَّة، والتجاوز الأخلاقي والمعرفي والتشريعي والمجتمعي الكامل مع نفي الماضي. وثمَّت حاجة للتفصيل ها هنا:

إن الحتميَّة التي يؤمن بها غالب منظري التطور المجتمعي، تقتضي ضرورة الإيمان بأن الإنسان في تطور خطي مستمر على كافة المستويات، وأن تقدمه واجب =إذ أن معيار قياس التقدُّم يذيِّلُ المجتمع ويضعُ العلم والتقنية في الصدر، فما دام المجتمع يتقدَّم علمويًّا فهو حتما يتقدَّمُ في كل شيء آخر /وكما في العلم، الذي تجبُّ النظريات الجديدة فيه أسلافها، كذلك المجتمع ومنظومته وأفكاره وتشريعاته، يجبُّ الحديث منها القديم. /وكما في العلم، الذي يذمُّ الحديثُ منه الرجعيَّ المتمسك بنظريات قديمة جاوزها الزمان، كذلك المجتمع ومنظومته، يذمُّ الحداثي فيه الأصولي التقليدي المتمسك بنظريات وتشريعات وأفكار أسلاف مضوا، كانوا أكثر تخلفا في المعرفة والأدوات، في أعصُر بدائيات مظلمات!

فالحتميَّة لا تعني فقط لزوم الإيمان بأن السير دائما هو إلى الأمام –إنما تعني كذلك حتميَّة رِفعة الحديث وضِعة القديم، وحتميَّة البحث الدائم عن اللحظة المُثلى، إن كان هناك شيء كذلك /ولهذا كانت نظريات التطور المجتمعي، في عصر سيادتها الذي وصل ذروة تركيبه في منتصف القرن العشرين مع الوظيفية والبنيوية =مُعاديَّة عامَّةً للأديان، إذ اعتبرتها ظاهرة مجتمعية تاريخية انقضى عصرها، وعائقا خطيرا في مزاعمها أنها أم الحق المُطلق للتاريخ والتشريع والتنظيم المجتمي. والواجب، أن يظل الإنسان مؤمنا بكون ما أقره من تشريعات أو تنظيمات مجتمعية، يمكن أن يصل إلى ما هو أعلى مع التحديث والتطور، ذاك جوهر الإيمان التطوري.

أما الإسلام فيستقلُّ هنا بما لا يشابه ذلك من قريب أو بعيد، إذ يؤكِّد أن ثمَّ مصدر رباني مُنزَّلٌ منذ خمسة عشر قرنا، حوى أفضل تشريع وأعظم دستور أخلاق وأنسب تنظيم مجتمعي يمكن أن يطمح الإنسان إليه /وما عمل الإنسان بعد ذلك إلا ضبط حياته كي توافق ذاك التشريع القانوني والأخلاقي =فالمِثالُ موجود، والواقع مُراعىً.

والتقدُّم العلمي والمجتمعي لا يكون إلا داخل الإطار المُنزَّل، فهو لا مُتجاوِزٌ ولا نافٍ، إنما مُطوِّر مُقدِّسٌ لما أنزله الله مُطلقا في كل زمان ومكان، مُحترِمٌ لعمل السلف لا يُعدِّل عليهم إلا في أضيق الحدود وفيما يسمح النصُّ المُقدَّس القديم بالتعديل عليه.

ثم أن العلم التجريبي المحض ليس قيِّما على التطور المجتمعي /إذ أن فضيلة المجتمع الأولى هي في اتباعها القرآن والعمل به، والتطور العلمي جزء من هذا العمل، ولا يستمد حافزه إلا من تلك الفضيلة. فإن حافظت أمة الإسلام على صورة المجتمع الأخلاقي والتشريعي وتدنت مكانتها العلميَّة =اعتُبرت أمة فُضلى ممدوحة الآخرة والعمل الروحي وإن نقصها

المزيد من الانضباط والعمل الدنيوي / أما إذا حدث العكس، بأن حافظت الأمة على العلم وتدنت أخلاقيا وتشريعيا =فهي أمة مذمومة الآخرة والعمل الروحي، ممدوحة في وجه واحد فقط ألا وهو حيازة أسباب مُلكُ الدنيا، العلم.

وسنرى قريبا، أن تلك النظريَّة أُخذِت كمُسلَّمة، بُني عليها البحث عن النموذج المثالي، واحتقار النماذج السالفة، تارة في النسويَّة، وتارة في فكر ثورة حضارة البهجة، وتارات في الليبراليَّة واليسار معا، وهذا طبيعي، إذ أن تلك الفلسفات بُنيت في عصر سيادة فلسفة التطور حقول العلوم الإنسانية، أي حتى الستينيات تقريبا، قبل تفككه مع حيرة الحداثة وارتباك مفاهيم التنمية وظهور عوامل عديدة مفاجئة في كل المجتمعات والحقول العلمية، ما خفض في النهاية من اليقين بالتطور المجتمعي أو حتميته على الأقل، على المستوى الأكاديمي بصورة خاصة /أما على المستوى الأيدولوجي، فقد استمر فكر التطور وإن كان قد تأثر بالنسبوية وما بعد الحداثة، كما سنرى في الأس الأخير.

***

الأس الثاني: النسويّة

أول الأسس الخاصة، التي ساهمت في إظهار اللوطيّة مباشرةً، هي النسويّة Feminism، وهي مسمى عام لعقيدة، وحركة أيدولوجيّة، واجتماعيّة، يمكن تلخيص أبرز اتجاهاتها في المعاني الآتية: 1) فهي نظرية عامة عن طبيعة اضطهاد الرجال للنساء. 2) وهي نظرية سياسية تهدف لتحرير النساء من استغلال الرجال. 3) وهي حركة اجتماعيّة حداثية لتغيير ما يتعلق بأحوال النساء كافةً، القانونية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. 4) وهي أيدولوجيا معارضة لكافة الأشكال الفكريّة والسلوكيّة لاضطهاد النساء ومعاداتهن (الميزوجينيّة) . (SAGEs Sociology 2006)

وللنسويّة مدرستان كبيرتان، وعدة مدارس فرعيّة، الأولى هي النسوية الليبراليّة، والثانية هي النسويّة الراديكاليّة – والليبراليّة منها هي الأقدم، إذ ترجع إلى نهايات القرن الثامن عشر، وقت البدايات الأولى، وكانت بالمجمل جزءا من حركة الاستنارة الليبراليّة. وقد ظلت قضاياها الرئيسية هي تحقيق المساواة القانونية والسياسية مع الرجال، حتى منتصف القرن العشرين. أما الثانية، الراديكاليّة، فقد اشتعلت أوارها في الستينيات، فيما يعرف بالموجة النسويّة الثانية Penguins (Sociology 2006)، وهي جزء من الثورة الجنسيّة التي غمرت الغرب في ذلك الوقت، وعليه كانت أفكارها أكثر ثوريّة وغضبا وتعصبا ضد الرجال. ولا يُمكن القول بأن الفكر النسوي المعاصر ينتمي إلى الأولى القديمة، أكثر من الثانية الراديكاليّة المتعصبة.

ومأثم النسويّة ووزرها الأكبر في قضية اللوطية، هو أنها فكَّت ارتباط الهوية العضوية الجنسية، بالهويّة المجتمعية، زاعمةً أن التلازم بين هذه وتلك مصنوع مُخترع =إذ لا يلزم من وجود الأعضاء الأنثوية عند إنسان، أن يكون امرأة وسيِّدة، بما يحمله معنى (امرأة) من أفكار مسبقة مُركَّبة عن وظيفتها ودورها الاجتماعي. أنصِت للنسويّة أورسولا شوي، وتدبَّر قولها، حين تصرُخ بعبارتها الشهيرة:(نحن لا نولد إناثًا، إنما نُجعَل كذلك) (شوي 1995)!

إذن من الذي يصنع الهويّة؟

سيفتقر فهمنا حينئذٍ إلى رحلة واجبة إلى غَوْرِ التاريخ كي نفهم[1]، إذ ترى النسويَّات المجتمع والتاريخ، في إطار الأس الأول، وهو التطور المجتمعي الشامل، على الصورة الآتية:

1- المجتمع مصنع هوياتنا، وهو مُشبَّع بأفكار ممتدة من بُدَّاءُ البشرية ومفتتح الوجود الإنساني، إلى حاضِرنا: ففي الأعصر الأولى لفجر تحول الإنسان من حيوان أعجمي إلى عاقل، كانت القوة البدنية هي معيار تنسيق التراتبية الاجتماعية /ولما كان الأقوى والأقدر على الصيد هو الرجل، فقد قام بتنضيد ترتيب اجتماعي يسوِّده ويجعله آمرا للكائن الأضعف، المرأة، التي شغِلها برعاية الأطفال وأفسد طموحها بقصرها على الأعمال الداخلية كتجهيز مكان مبيته، وتلبية شهواته.

وقد رضخت كرهًا المرأة، لأن الظروف البدائية القاسية لم تسمح لها بالمناوؤة ومقارعة تلك الهيمنة وخلع نير الرق. إذن الرجل منذ مُفتتح التاريخ والإنسانية لم يكن إلا مستبدا غشوما جائرا، يستخدم توحشه وقوته العضليَّة لقمع المرأة المسكينة وقتل طموحها بتحقيق كينونة وهوية متميزة عنه ومستغنية.

2- لكن ذلك لم يكن أقبح ما صنع الرجل، بل ما أتى بعد ذلك أفحش:

فقد عمم الذكور، ثم ورَّثوا للنشء من بعدهم، ذاك التنظيم المجتمعي، حيث لا تكون الأنثى فيه إلا مسترقَّة مُهانة ذليلة، ومن هنا أصبحت هوية الذكور من الأطفال هي (رجال)، وأصبحت هوية الإناث (نساء).

لتوضيح المعني أكثر، فإن (الرجل) مثلا هو صناعة مجتمعية متوارثة، يتدرب عليها الصغار منذ التنشئة الاجتماعية والأسرية الأولى، فيتم تدريب الذكور على القتال والصيد وقهر المرأة والتسلط عليها والإيمان بالتفوق الذكري بحق الطبيعة /و(المرأة) هي الأخرى ليست إلا صناعة مجتمعية متوارثة، تتدرب عليها الإناث منذ الولادة، ويتم فيها غسل أدمغتهن وتلقينهن أن وظيفتهن هي الخضوع لسيادة الرجل وتسلُّطه وإنفاذ أوامره وقبول هذا الجور، والترحيب بالدور المجتمعي الذي تؤديه كل امرأة من تنظيف منزل إلى إعداد طعام وتربية أطفال.

---

(1) وإن كانت هناك صعوبة في جمع كافة الرؤى النسويَّة لشكُّل التاريخ والواقع، خاصةً مع الاختلاف بين النسوية الليبراليَّة التي تعزف عن التحليل التاريخي لكيفية حدوث القمع، والنسويَّة الراديكالية المولعة بذلك (براون 2012)، إلا أنني سأحاول عرض ما يجمع شتات رؤية أغلبية النسويَّات للتاريخ، ومنه نفهم تصورهن للواقع وللحلول المطلوبة، وأخيرا نصل إلى معرفة كيف ساهمت الفلسفة النسويَّة في صناعة اللوطيَّة.

3- ثم جاءت تاريخيا بعد ذلك المرحلة الثالثة، القرار وخلع القداسة:

فبالتأطير الديني، أدخل الرجل مفاهيمه في الأديان التي اخترعها أو صاغها، وزعم أن (الإله) هو الآمر بتلك التراتبية والصورة المجتمعية والأدوار المسبقة =فتقدَّس هذا التنظيم المجتمعي الجائر، وترسخ إيمان النساء به، وتهيبن مخالفته حتى اتهمن كل من لا تضبط دورها الاجتماعي المرسوم بالشذوذ والنشوز. أي أن المرأة أصبحت أول أعداء الأنثى؛ بمكر الرجل التاريخي السرمدي، والذي لم يتوقف لحظة.

4- ثم تطورت المجتمعات وتقدَّم التاريخ، وجاء عصر كسر أغلال الأديان والخرافات وكل ما اخترعه الرجل ومجتمعه الذكوري البطريركي [2]، جاء عصر طلب المساواة الكاملة بين الجنسين.

5- لكن المساواة الحقيقية لن تكون إلا بإنهاء الهيئة الأولى من الجذور، إنهاء ربط الرجل بالذكر، والمرأة بالأنثى =فلا يُشكَّلُ الطفل بناءً على تصنيفه الجنسي (ذكر أو أنثى)، إنما يُشكِّل هو ذاته، وتُعزز فيه قيم الحرية، وأن لا فارق بين الجنسين؛ فإن أرادت الأنثى أن تقوم بالدور الاجتماعي الذي اعتاد الناس على اعتباره من أدوار الذكور -هُلل لها، فهي ثائرة على التخلف والأفكار الرجعية البدائية المتوارثة / وإذا أراد الذكر أن يمارس أدوارا اجتماعية ارتبطت بالأنثى -فحيهلا!

هذا مُجمَل التصورات النسويَّة عن التاريخ والمجتمع والهويَّة، وهو يختلف حدةً في التفاصيل بين نسويَّة وأخرى، ويختلف كذلك في اتهام الرجل ذاته ومن ثمَّ قصده بالعداء الملتهب لطبيعته النتنة، كما يظهر في النسويَّة الراديكاليَّة، أو اتهام المجتمع وتنظيمه واعتبار فِعال الرجل لم تكن إلا توارثا ناتجا عن عدم فهم للوضع المتخلف، كما يظهر في النسويَّة الليبراليَّة.

لكننا نخلُص بما يلزمنا في ذلك المبحث، بالمبدأ الأول الذي يدور عليه حديثنا: وهو فلسفة (الجندر) التي أنتجها هذا الكلام.

---

(2) البطريركي: نظام يقوم فيه الرجل بدور القائد صاحب الحق في السيادة لذكوريته، مثل الأب في منزله، والبابا في الدين، والملك في السلطة /راجع مادة نظام سلطة الأب في (سيمور-سميث 2009).

إن الجندر[3] هو النوع الاجتماعي، نوع مصنوع. والرجل والمرأة هما تعريفان جندريَّان، أما التعريفات الجنسية البيولوجية فهي (الذكر والأنثى) =وهذا منفكٌّ عن ذلك، ووظيفة الثورة النسوية التحررية تغيير الرؤى المجتمعية عن الجندر، وتطويرها حتى الوصول للمساواة الكاملة، فتأتي يوتوبيا (المساواة الجندرية) الكاملة!

إن المجتمع هو العدو، وهو موطن العمل الرئيس للنسويَّة؛ فهو خالق الجندر، توهما منه أن الجندر يساوي الجنس البيولوجي للمولود =أما الحقيقة فعلى خلاف ذلك، إذ أن جنس المولود لا دلالة له، ولا تُملأ دلالات الجنس البيولوجي بالأفكار المسبقة المصنوعة، إلا ببقايا أعصر الأديان والتخلف من ثقافة ذكوريَّة قمعيَّة.

منا هنا نترك النسويَّة لندخل في مرحلة جديدة بدأت من حيث انتهت النسويَّة: مرحلة فلسفة الجندر:

1- قيل، ما دام المجتمع هو صانع المرأة والرجل، وأن جنس المولود لا دلالة له، وأن على كل إنسان أن يختار الدور الاجتماعي الذي يحبه =فما الذي يمنع أن يطلب الذكر لعب الدور الاجتماعي للأنثى كاملا، بعلاقاته الجنسية -فيكون لوطيا؟ وما الذي يمنع الأنثى أن تفعل نفس الشيء فتلوط بالنساء؟ بل ما الذي يمنع ظهور أشكال متعددة لا حصر لها: كرجل يريد أن يكون أنثى فيُجرى جراحة لزراعة ثدي ويعيش كامرأة -حتى لو كان يحب النساء ولا يلوط / وكأنثى تزيل ثدييها وتطلب العيش كرجل حتى إن كانت تحب الرجال؟ فظهر مفهوم الخِناث (الترانسجندر).

2- وجاءت كذلك موجة أخرى نسويَّة الأصول، تطالب بتمكين المبدأ الآتي على مستوى أكبر: ألا وهو تعديل التنشئة الأسرية والمجتمعية لتحرص على استبعاد كل عامل في التنشئة يوجه لجندر معين =فظهرت أفكار الجنس الموحد Unisex في الملابس، وتوحيد الألعاب بين الجنسين، وتعليم الأطفال أنهم لا ينتمون لجندر معين، وأن وجود عضو ذكري أو مهبل لديهم، ليس له دلالة، وأنهم طُلقاءُ يختارون ما يطمئنون إليه من أنواع.

---

(3) يُستخدم الجندر مرادفا للجنس البيولوجي في الاستعمال العام، فيتم تقسيم الجندر إلى نوعين، ذكر وأنثى، لكن المعنى الاجتماعي له مختلف، ويتم التفرقة بوضوح بينه وبين الجنس البيولوجي للإنسان، فهو مجموعة من الخصائص الاجتماعية المرتبطة ثقافيا بأحد النوعين– (SAGE's Sociology) والفلسفة الجندرية قائمة على فكرة الجندر بالمعنى الثاني لا الأول.

3- وارتبط التطور التاريخي والمجتمعي كما عند النسويَّة، بتحقيق الخلاص من الأفكار المسبقة القديمة والمتخلفة عن جندر الإنسان، وتخليق دلالات جديدة له تحقق المساواة الكاملة بين كل البشر.

فما واجبنا الإنساني تجاه ذلك التطور؟ علينا معرفة أن عداوة اللوطي أو اللوطية، لم تنبع إلا من أفكار متخلفة بدائية ترسخت لدينا من أزمان التوحش والبداءة، أزمان كانت تربط الجنس بالنوع الاجتماعي، أزمان كان كل اختلاف وتنوع يُصنَّف باعتباره شذوذا يستحق العلاج. علينا معرفة أن الإنسانية لم ولن ترتقي إلا إذا أدركنا أن اللوطيين والخِناث هم أفراد لم يستسلموا لأفكار مجتمعاتهم وتصنيفاته المتوارثة من عصور الظلام، ولم يرضخوا لربط جنسهم بجندرهم، فثاروا على كل ذلك وحرروا جندرهم، بل خلقوه من جديد، وعلى كل إنسان أن يدعم ثورتهم، كما دعم تحرير المرأة في القرن الماضي، من أجل الوصول إلى مجتمع المساواة المنشودة، مجتمع ألوان الطيف البهيج المتنوع!

ذا كان مسار الوصول من النسوية إلى اللوطية، التي هي في حقيقتها وريثة الأولى ومؤدَّاها ولازمها، والتي كانت أفكارها الكبرى بنات الفلسفة النسوية، والتي تقصد ذات الهدف: وهو تحرير الجندر من مفاهيم الظلام، وتحميله مفاهيم الأنوار والحرية. مع إضافة وجوب فتحه للتنوع بعدما ظل مغلقا طوال التاريخ على نوعين فقط، تبعا لوهم حتمية ارتباطه بالجنس.

ذلك هو مجمل أثر الفلسفة النسوية، وفيه نقاش نخوضه قبل الانتقال للأس التالي:

أولا: لقد بُنيت تلك الفلسفة كُلها على فلسفة حتميَّة التطور المجتمعي والإنساني عامةً، وأن كافة التشريعات والتنظيمات المجتمعيَّة القديمة معيبة، بنات دهر السيادة الذكوريَّة =وعليه لا تتسق الفلسفة النسويَّة وتكمُل سوى بالإلحاد، وإلا لو وُجِد إله فهو ظالم مُحابٍ للرجال على حساب النساء، لأنه لم تُقرَّ أي شريعة، خاصة الشرائع الإبراهيمية، بفكرة السيادة المتساوية المطلقة بين الجنسين /فظل تسويد الرجل على الأنثى هو الأصل، ولو في جانب واحد من جوانب الحياة.

ماذا يُقدِّم الإلحاد إذن؟ إنه يُقدِّم الصورة الوحيدة التي تنظُم كل التفسير النسوي للسيادة الموروثة، فكيف تقول أن كافة التشريعات والتنظيمات المجتمعية في التاريخ آثمة مجرمة، بينما كثير من تلك التشريعات آتٍ من نصوص أديان واضحة الانتساب لإله خالق؟ إن إيمانك بالإله يُلزِمك أن تقول بتنزيله أحسن التشريعات، حتى لو كان قد حدث فيها عبث بشري بعد ذلك. ويلزمك أن تؤكِّد على أن النصوص الرئيسية التنظيم المجتمعي والتشريعي واضحة التحيُّز لسيادة الذكور

والتحفظ على الأنثى باسم الصيانة، هي نصوص صحيحة مطلقة زمانا ومكانا =وهذا مستحيل عند النسويَّة، التي تؤكِّد على أن كل تشريع وكل مجتمع سبق لم يكن إلا ذكوريا ملعونا. لهذا لا تستقيم النسويَّة أبدا والإيمان بوجود إله خالق، ولا تخلو مؤمنة بدين إلهي مع النسويَّة من تناقضات ضخمة تهزها وتزلزل طرحها إن تعمقت فيه ولزمت لوازمه =فالإلحاد حتمي لاستقامة النظام واللوازم.

لكن مشكلة الإلحاد الكبرى، غياب المعايير، تطلُّ فاحشةً حينئذٍ: فما دام لا معيار إلا المادة –يلزم أن نرتد إلى حالة البدائية الأولى التي يزعمنها، حيث مادة القوة الجسمانية عند الرجل أكبر، وبالتالي يكون هو الأقدر على إخضاع المرأة الأضعف أبدا، فعلام التشكِّي؟ البقاء للأقوى!

ثانيا: سقطت كافة الرؤى التي أسلمت النسويَّة في تلك التناقضات الفاحشة، وزِدن عليها، مهما حاولن التخفف من الراديكاليَّة، ومهما حاولن الاكتفاء بالنوازع الليبراليَّة التي تتحدث عن ظلم المرأة وتسويد الرجل عليها بالقوامة –فالإسلام مناقض للتطور الشامل، ولا يتحدث عن أصل حيواني للإنسان وللمجتمعات استقى منه الإنسان مفهوم إعطاء السيادة للأقوى فقط، ولا يقبل من بشر أن يزعم جور تشريعات الله لبني إسرائيل، بل يُخرِج من دائرته من ادعى أن شرائع الإسلام كانت وقتيَّة متخلفة ابنة مجتمعها، أو ظالمة بحق فئة من الفئات =هذه المبادئ، كافَّةً، مناقضة تماما للرؤى النسويَّة للتاريخ وللتطور التي ذكرناها، وتوفيق كل ذلك مع بعضه البعض يزيد النسوية المؤسلمة اضطرابا فوق اضطراب النسويَّة الأصلية.(4)

ثالثا: هل تحررت الأنثى، أم ضاعت وسط بحر اللوطية والتنوع؟ إن هذا السؤال أول ما يجول بذهنك عندما تبصر مآل الخطاب النسوي بكافة أطيافه، بعدما تصدرت نتائجه، أي قضايا توسُّع الجندر وتحرير اللوطية، عناوين الفكر المجتمعي بدلا من قضايا تحرير المرأة.

بالنسبة لكل كافر بالنسويَّة، فقد حققت الراديكاليَّة منها نجاحات ضخمة في إعادة تشكيل التنظيمات المجتمعية بالغرب والعالم، حتى لو بصورة غير مباشرة عن طريق دفع الهيئات المقاومة لها بالتحالف مع النسويَّة الليبراليَّة المخففة وتلبية

---

(4) راجع فصل التنسون، من كتاب الإسلاموطوبيا، ففيه نقاش أوسع لحالات أسلمة النسويَّة.

أوامرها، ونقاش ذلك يطول جدا =لكن مع ذلك، لا توجد لا نسويَّة راديكاليَّة، ولا ليبرالية، إلا وتجأر بالشكوى من استمرار التحيز المجتمعي الذكوري، واستمرار ابتعاد الكتل النسائية المتزوجة عنهن والاستسلام للرجال في المعركة [5]، وبالتالي يُشكِّل تراجع الاهتمام المهووس بالنسويَّة وتمكين المرأة، إلى المقاعد الخلفية، مقابل الهوس الجديد باللوطيَّة =نكسة للقضية النسويَّة، فضلا عن الارتكاس الذي حدث لصورة المرأة القويَّة، بما صنعه اللوطيون والخِناث من تشبه بالنموذج الأنثوي المدلل العابد للرجال، والذي عاد للواجهة مرة أخرى على أيديهم!

رابعا: مثَّل الانتقال من الجندر الطبيعي الفطري المساوي للجنس، إلى الجندر المصنوع الوهمي =حالة من فوضى الجندر، ملتهبة الأوار: فلم يعد يوجد رجال بحق، ولا نساء بحق، وتداخلت الميول الجنسية مع الهوية المجتمعية مع الهوية الجنسية، لتصنع شبكة ضخمة من الأنواع الجندرية المجنونة. وصارت المرأة أحد أضلاع تلك الشبكة، حيث لا يوجد (جنس نساء) حقيقي كامل، بل هناك نساء يُعرِّفن أنفسهن بأنهن ذكور، خنِثات، ولا يرتضين بالممارسة النسويَّة بل يحاولن حيازة السلطات الذكورية تشبها بالنموذج الذكوري الخشن الشهواني الفظ الذي رسمه الإعلام النسوي، وهناك نساء لوطيات يردن لعب دور (المرأة) مع فحلتها اللوطيَّة ولا تشغل نفسها بالهوس النسوي الرافض لأي دور استكانة أو خضوع تؤديه المرأة، وهناك نساء لوطيَّات يعشقن النسويَّة الراديكاليَّة ويرين فيها النظرية المعبرة عنهن، ولوطيات أخريات ينظرن إلى النسويَّة باعتبارها شيء كئيب يرفضنه لأنهن يردن اللواطة بامرأة تتدلل معهن وتخضع لهن، إلخ! وما عند النساء، أضعافه في المماثلة عند الرجال! فأين القضية النسويَّة وسط هذا الزخم المجنون؟ إن الهيستريا التي كانت تُسعِّر حرب الإعلام والرأي العام في القرن الماضي ضد أي لمحة (ميزوجينيَّة) /تحقيرية للمرأة، والحساسية المفرطة في ذلك الشأن، ورِثتها اللوطيَّة، بل زادت عليها، حتى أنه يمكن وصف اللوطيَّة بنظرية ما بعد نسويَّة.

بذلك ننتهي من النقاش الأس النسويَّ ودوره، وننتقل إلى الأس التالي.

***

---

(5) النسويَّة من نظريات الصراع، مثل الماركسيَّة، حيث تؤمن بحتمية الصراع الأبدي بين النوعين، الذكر والأنثى، ونظرية الصراع conflict theory هو مُصطلح يطلق على كل نظرية تنطلق من فرضية قيام المجتمع على صراع حتمي بين طرفين أو أكثر .(SAGE's Sociology 2006).

الأس الثالث: الفردانيَّة

إن اللوطية الحديثة نشءٌ ليبرالي، ولن يمكن نقاشها إلا باستعراض آثار ذاك الدين العلماني عليها، وفي هذا الفصل سأتعرض لأبرز أساس ليبرالي أحسبه يُلزِم بتقديم اللوطيَّة، حتى إن لم يكُن حين وُضِعه الواضعون يُتصوَّر إمكان وصول اللزوم به لذاك المضيق!

إن الأساس الليبرالي الجلي هو الفردانية، كعبة الفكر الليبرالي منذ النشأة، والتي لم يخفَ على الناظر فيها ارتباطها بالفكر البروتستانتي، الذي كان ثورة على الكنيسة ومبادئها، حتى قيل أن البروتستانتية ليست إلا نموذجا دينيا للفردانيَّة.(Penguins Sociology 2006)

والفردانية تُعرَّف بأنها عقيدة سياسية ليبرالية، تحضُّ على استقلال الأفراد الذاتي وحريتهم في مجتمعهم، وهي عِماد الرأسمالية، وتكوِّن جزءا لا يتجزَّأ من الحضارة الغربية الحديثة .(Cambridge Sociology) وفي ذاك المعتقد لا يكون كل إنسان مميَّزا فحسب، بل إنه متفرِّد ذو أولوية على المجتمع كله، حتى عتا جمعٌ من الليبراليين فأنكر وجود (المجتمع) ذاته، قالوا: ما المجتمع إلا مجموع أفراد مكتفين بذواتهم (هيود 2012)؟!

إن الفردانية منذ اليفاع ليست إلا منظورًا معاديًا للجماعيَّة التي كرستها الكاثوليكية، حيث يتعزى المرء الآثم والفاشل بتقوى جماعته كلها (SAGEs Sociology)، ويحرص على الخضوع للنخب ولمنظومة القيم الاجتماعيّة التي نشأ فيها، ويتمسك بتوريث تلك المنظومة لأبنائه من بعده، فيبقى المجتمع ساكنا، ويبقى كل امرئ رهين جماعته، فابن القِن قن، وابن السيد سيد، ولا فرد إنما مجتمع، والخلاص جماعي لا فردي =هنا جاءت الفردانية من البروتستانتية والرأسمالية معا، فالأولى بثورتها على الكاثوليكية أكدت على أن الفرد مسؤول عن نفسه وخلاصه هو وحده، لا يحتاج لنخبة من الكهان والملوك والأمراء تكون وسيطا بينه وبين ربه، والثانية بثورتها على النظام الإقطاعي (الفيودالي) الذي تعامل مع الشرائح والطبقات الاجتماعية بتصلب، وروَّج مفاهيم وشعارات عامة عن الطبقات والأعراق لا يفر منها المرء، ولا يحيص إلا إليها! فالأسود

عبد بليد، والفقير حاقد سارق، والثري ابن السراة، يسبغ حسبه عليه أحسن المكارم والصفات، والأمراء والملوك سادة بالفطرة لا يطمح من دونهم اقتباس لمحة من شعاع حصافتهم ورزانتهم!

تلك المفاهيم التي قولبت كل إنسان وحكمت عليه بحياة طبقته التي لا تتغير جعلت المجتمعات ساكنة التخلُّف =فكان لا بد من الثورة عليها حينما صعدت الرأسمالية بالبرجوازيات الصغيرة الطامحة في خلخلة بنيان النخب متوارثة السيادة، سواءً الدينية أو السياسية.

ثمَّ أطلت الفردانية كأساس لتلك الثورة الحتمية، حيث (اكتشف) الغربيون فكرة التمايزات الفردية وفكرة (لا تزر وازرة وزر أخرى) وفكرة (كلهم آتيه يوم القيامة فردا) و(إنك لست بخير من أحمر ولا أسود؛ إلا أن تفضله بتقوى أو عمل(! لكن لما جاءت تلك الاكتشافات خليط دين علماني =لم تنضبط بضابط مثلما ضبط الإسلام حرية الفرد، فخاطت الليبراليَّة ثوب الفردانية حريرا صال عليه السوس، يحتفي الجاهل ببهرجته ولا يعزب عن الثَّقِف اهتراء نسجه وخوار بطانته.

فقد عاب فردانيَّة الليبرالية المصنوعة في الفكر الأوروبي تحديدا مزاعمها الرومانسية حول (تفرُّد) كل شخص وأولويته على المجتمع (الأيدولوجيات السياسية 2012) (Cambridge Sociology) وضرورة حمايته في وجه المجتمع والنظام اللذين صوِّرا خصوما للحريَّة =فجاءت عملية الفردنة انتزاعا للإنسان من روابطه التقليدية مع عائلته ومجتمعه وتحفيزه على اختيار شخصيته وهويته الذاتية بمعزل عن كافة ما حوله .(Penguins Sociology)

ولن يتمكَّن الفرد من تطوير ذاته الخاصة الحقيقية دون أي مؤثِّر خارجي إلا بتحرير نفسه تماما من أي قيود مجتمعية أو دينية أو سياسية تحاول قولبته، فالحرية هي الحالة الوحيدة التي يمكن للأفراد تنمية مهاراتهم وتحقيق ذواتهم فيها (هيود 2012) وتلك الحرية مضمونة طالما لم يقم المرء بإيذاء الآخرين.

لهذا خاضت الليبراليَّة الوغى من أجل تقوية الإيمان بالإنسان ذاته وبأن الأصل فيه وفي علاقاته بالآخرين هو الخير =فهي كنظرية رومانسيَّة لا يمكن أن تتلاءم طويلا مع واقعية الليبراليين السلطويين مثل هوبز ودي سبينوزا، والواقعيين المحدثين مثل مورجنتاو.

وبقدر ما أجلَّت الفردانيةُ الحريةَ، قدَّست العقلانيَّة العلمانية، حيث أوجبت على العقل الإنساني محاربة كافة التقاليد التي نشَّأها المجتمع الأبوي / البطريركي (هيود)، وهو ما كان يعني اعتبار كل حاكمية غير حاكمية الفرد نفسه، أغلالا يجب كسرها: فلا سلطان ولا حاكمية لمجتمع، ولا لدين، ولا لأعراف وعادات –إنما الحاكمية للفرد الفذ، الإنسان كل إنسان، ذاك المخلوق الذكي الذي لا يشبه واحدٌ منه الآخر!

إن كل ذلك لا يُفهَم إلا بإدراك السياق الأوروبي القروسطي الإقطاعي الكاثوليكي الساكن الذي تحدثنا عنه، وبإدراك أن كل تلك الثورة الأوروبية الطائشة المتمردة لم تجد لها ركنا ركينًا من كتاب سماوي لديها؛ فاستندت إلى عقل أرضي، وأحسنت التنظير والكلام البلاغي الإنشائي الجميل، ثم لما نزل كل ذاك إلى الواقع كانت الكوراث: فمن إمبريالية مسيحية إلى إمبريالية علمانية إلى إمبريالية اقتصادية إلى إمبريالية مقنَّعة خفيَّة =لم تتوقف الدول الليبرالية عن سحق باقي العالم وإيجاب نظريتها على الجميع، دون أن يقتنع الموجِبون أنفسهم بأن الليبرالية دين صالح للسيادة والحكم العالمي الواقعي حقيقة، وأفعالهم خير شهيد!

إن الفردانيَّة وما أحاط بها من تقاليد ليبرالية قد زوَّدوا أصحاب الميول اللوطيَّة بالأسس الآتية:

أولا: أن هوية الإنسان يحددها هو لنفسه، فهو متفرِّد مُقدَّس الاختيار لا يخضع لأي معيار مجتمعي أو ديني، لأن كل تلك المعايير ليست إلا مظاهر للأبوية، ولحاكمية وتسلط (الآخرين) عليه محاولةً لقولبته في هوية وميول محددة =وهذا أساس انتشار عبارات معاصرة مثل (من أنت لتحكم عليّ؟) و(أنت لست الإله لتحاكم أفعالي!)، وقدَّس اللوطيون ميولهم مع الوقت، حتى وإن شعروا بالإحراج منها في زمن ما، لكنهم وجدوا في الليبرالية متنفسا، إذ تقول لهم أن المجتمع عدوكم، وأنكم أنتم من تحددون الصواب من الخطأ والصالح من الطالح، ما دمتم لا تؤذون الآخرين جسديا / فأنتم متفردون لا يجب أن تخضعوا لسلطان، كونوا رجالا أو نساءً إن شئتم بلا قيد إلا هواكم.

ثانيا: ساهم ظهور علم النفس الحديث مؤسسا داخل مجتمعات تدين بالليبرالية في فشوِّ تلك الظاهرة، فاستبطن العلم ذاته أسسها ومبادئها أثناء تفحصه للحالات وتفسيره لها: فقد كان يبحث الفرد ونفسه بتقديس وافتراض الصدق فيه، وينصت لتفسيره ميوله الشاذة وشهواته لا باعتبارها أكاذيب أو تبريرات نفس تخدع الذات قبل الآخرين، أو وسوسات شيطانية؛ بل باعتبارها حقائق =فما هو المعيار الحقيقي حتى يُعتبر شذوذًا اعتراف أحد الذكران أنه يعشق الذكور وحدهم؟

لقد ظلت المجتمعات الليبرالية في تناقض باعتبارها اللوطية مرضا حتى لزمت لوازمها وتخلصت من تلك الحاكمية المعيارية المجتمعية، بالأفكار النسبويَّة =فأبطلت كون اللواط مرضا أو شذوذا! وعليه أنصت النفسيون كثيرا وحللوا كافة الأكاذيب وأهواء النفوس وأباطيل الحديث التي قالها اللوطيون ثم أخرجوا منها أطنان الدراسات المؤكِّدة لكون الأفراد إما يولدون بميول لوطية طبيعية رغما عنهم، هذا عند من يعتبرون أن الإنسان يولد بميول جنسيَّة خلقةً / وإما يولدون بلا ميول محددة، إنما يفرض المجتمع عليهم بحاكمية أفكاره شكلا محددا من العلاقات الجنسية، ثم يتعذبون حياتهم من الخضوع لذاك الشكل بينما ميولهم التي تتشكل أثناء نموهم قد تخالف القطيع المجتمعي، والمُتعارف عليه، فيسوءها الرضوخ!

فلا جرم، شكَّلت الفردانيَّة بأفكارها ولوازمها منظور كثير من علماء النفس عامةً، والمؤسسين لفكر طبيعية اللوطيَّة خاصةً.

ثالثا: أسس اللوطيون دعايتهم الرئيسية على فكرة تميُّز اللوطيين كأفراد، وإظهار معاناتهم الشخصية من حاكمية مجتمعهم وساستهم =ولأضرب مثلا بفيلم لعبة المحاكاة (The Imitation Game) الذي صدر عام 2014، حيث صوِّرت فيه قصة معاناة عالم الرياضيات الفذ (آلن تُرينج) الذي كان لوطيًّا وعانى من مجتمعه وتشريع بلده بريطانيا التي أغلظت عليه وأفسدت حياته لميوله الجنسيَّة –التي لا ذنب له فيها، رغم إحسانه، إذ كان من كبار عملية إنقاذ بريطانيا طوال الحرب العالمية الثانية!

إن تلك الفكرة تظهر بقوة في مشهد يجلس فيه تُرينج أمام المحقق الإنجليزي بعدما انتهى من رواية بطولاته الكبرى وإنقاذه لبلده بعقله الألمعي، ثم إخباره بميوله التي لا ذنب له فيها، سائلا إياه في الختام عن حكمه عليه كإنسان: أهو بطل أم وحش؟ هنا يُلقِّنك الغرب بالإجابة على لسان المحقق: لايمكنني أن أحكم عليك!

إن البروباجندا الليبرالية الفردانية الرومانسية عن تفرُّد كل إنسان وتميُّزه لم تتوقف لحظة إعلاميًّا، إنما أجادت التخفّي في صور عديدة، وقد استُخدِمت بكثافة في الدعاية للوطيّة كما سنبيِّن في الفصل الخاص بذلك.

رابعا: زرعت الفردانيَّة الليبرالية ميلا لإضفاء الثورية واتخاذ صف الفرد ضد الأحكام والقيم المجتمعية والدينية والسياسية، فالعدوانية مع كافة السلطات والقيود كانت مطيَّة اللوطيين زمنا طويلا إلى الشباب بتأجيج حميَّته وشغفه بالتمرد

=فاللوطية ثورة على العالم القديم وتحرير للمستقبل من ضيق الأفق والقولبة الجاهزة المتوارثة! وإن كان هذا سيظهر بصورة أوضح في الأس الثوري القادم.

إن تلك هي الآثار الأوضح للفردانية، ولو دققت فيها وفصَّلت ما كفاني الكتاب، فنكتفي بهذا ها هنا موضحين في الختام أن الماركسية ذاتها جزء من ثورة التنوير العقلاني في أوروبا، فلا يظنن ظانٌّ أن تلك الأسس الليبراليَّة لا علاقة لها بالاشتراكيين، خاصةً الحقوقيين منهم، بما يجتمعوا عليه من أفكار مجتمعية مع اليسار الليبرالي =إذ أن كونهم يتجنبون مفهوم الفردانيّة الصريحة بمسار أطول، لا يعني أنهم يصلون في النهاية إلى ما يخالف ذات الفلسفة عن الإنسان المتفرد المتميز ووجوب مساندته والهجوم على الأنساق المجتمعية والدينية المتوارثة، بصورة قد تفوق الليبراليين أنفسهم. فاليسار الحقوقي (متلبرل) فلسفيًّا وإن نخر الناخرون وجزع البُلهاء، وكشف دور تلك الأسس في إظهار دين اللوطيَّة هو فضح لليسار الحقوقي مثلما هو فضح لليبرالية سواءً بسواء.

***

الأس الرابع: الثورة من أجل حضارة البهجة

الأساس الذي سأناقشه الآن أحسبه عِماد التيار اللوطي في الغرب منذ منتصف القرن الماضي إلى الآن، ألا وهي فلسفة (حضارة البهجة) اليوتوبية.

وإن كانت كافة الأسس السابقة تبحث وتعِد بفردوس أرضي ويوتوبيا ضمنًا، فإن هذا الأساس تحديدا قائمٌ صراحةً على فكرة اليوتوبيا وصناعة فردوس حضارة المباهج! وسيتضِّح هذا خلال استعراض حقبة الثورة الجنسيَّة.

لقد كانت الثورة الجنسية في نهاية الستينيات قد بلغت ذروتها، ونبَّأت الوقائع المتكررة المتتالية في أوروبا بقرب قيام حدث رمزي كبير /ومع ذلك جاء (حفل الوودستوك) مُفاجأة فظة للغرب كافةً!

هو حفل شبابي لموسيقى الروك أُعلِن عن التجهيز له في مكان عام بالولايات المتحدة الأمريكية، هاجمته جمهرة المجتمع الأمريكي الأميل للمحافظة حينها، فظهرت الصورة الكلية للمشهد كالآتي:

يمينا يقف المجتمع التقليدي العجوز القديم، يَبهَر أنفاسه يأسا لمنع إيجاد العاصفة الشبابية في اليسار بؤرةً لتزأر معلنة قدوم المستقبل! في جهة: المجتمع المحافظ، الكئيب، المهووس بقتل الفيتناميين المساكين / وفي الأخرى: مجتمع البهجة والشباب والموسيقى وهجران الحرب لصالح الحب!

عندما بدأ الحفل في ولاية نيويورك ظهر المشهد المهيب: إذ حضر ما يقارب النصف مليون غالبهم من المراهقين والشباب، والكل آتٍ بشعار واحد، رفع راية (الموسيقى والحب)!

استمر الحفل في الهواء الطلق لثلاثة أيام، وصور ما جرى فيه تغنيك عن القيل؛ فقد (مورس الحب) بكافة أشكاله وشذوذاته! صور لمئات الفتيات عاريات الصدور أو الأجساد دون أي سعي لتستر أو لمحة ارتباك! صور لقبلات حارة وأجساد متعانقة متجاورة متراصة بلا نهاية!

كانت هذه الصدمة فريدة لدرجة أن تم إطلاق اسم جيل الوودستوك (Woodstock Generation) على هذا الجيل، الذي نقل الحضارة العالمية إلى عصر ما بعد الثورة الجنسية، حيث هُدِّمت كثير من القيم، وانفك الجنس عن القيم التقليدية الفطرية للإنسان.

لكن ما علاقة ممارسة الجنس وتحرير الشهوات من كل ضابط، بمعاداة الحرب؟ ولماذا كانت الثورة الجنسية ابتداءً؟ نحتاج إلى العودة للخلف بضع سنوات. إلى عهد ظهور الشعار الشهير (مارِس الحب، لا الحرب)!

في نهاية الخمسينيات، نشر (هربرت ماركوزه) الفيلسوف الألماني الأمريكي المعروف، كتابه (الإيروس والحضارة)، الذي قدم فيه نموذجا تفسيريا للحضارة الغربية وكآبتها وأسس العنف فيها، مستخدما مزيجُ أفكارٍ فرويدية وماركسية، ومطالبا بتغيير تلك الكآبة وتقويض الحضارة الصراعية المُقبِضة، لبناء حضارة تآلفية ودية مُبهِجة =وهو النموذج النظري الذي ينتمي إلى فرضية عامة سيسميها ميشيل فوكو بعد ذلك بالفرضية القمعية .Repression hypothesis

ولا يعتاصُ على المرء فهم نموذج ماركوزه، وملخصه الآتي:

1- أن الحضارة الغربية طافحة بالقهر؛ فالمجتمع مقموع بنظام الهيمنة الطبقية الرأسمالية الملوَّث بالتصور البروتستانتي الزاهد عن الشهوات =وقد فرض بهذا النظام قيودا غير ضرورية على ممارسة الجنس، ساهمت في تحويل طاقة (الليبيدو)[6] المقموعة إلى فائض إنتاج ينتفع به المهيمنون على تلكم المجتمعات خاصة في القرون الأخيرة.

2- وأن هذا القمع لا يُعظِّم فقط بؤس العمالة، بل يدفع لمزيد من العداوات والأحقاد الطبقية =ما يغمر الجميع، انتهاء، في مستنقع للعداوات والحروب المستمرة داخليا وخارجيا.

3- وليس السبب المُهيِّج لأبدية الحروب في النظام الرأسمالي إلا هذا العامل في المقام الأول =فالقمع المجتمعي للملذات الحسية، وخاصة التوجهات والرغبات الجنسية، ينحرف بطاقة الإنسان بعيدا عن رضاه الذاتي الذي لا يتم إلا بإشباع شهواته، وتزيد وتيرة القمع رجاء إنالة رأس المال، وخدمةً للحرب مُستعقبا ومُستقبِلا!

---

(6) مصطلح فرويدي يعني به الطاقة النفسية للغريزة الجنسية في الإنسان، بصورة خاصة، أو غريزة الحياة كلها بمعنى أعم .(VandenBos 2015)

4- وعليه نخرج بقاعدة تاريخية اجتماعية ونفسية كبرى، نبني عليها الكثير: أن القمع الجنسي كلما تزايد حدةً =زاد العنف شرا!

5- أما المجتمع الاشتراكي طبقا لماركوزه، فهو الذي يستطيع أن ينهي تماما على الزعم الرأسمالي بأن العنف العالمي داخليا وخارجيا إنما هو قائم على الصدام بين مبادئ الواقع وبين الإيروس (مبادئ المتعة) =فالحقيقة أن العنف القائم هو بين العمالة المقهورة وبين الإيروس /وسيكون المجتمع الاشتراكي المطلوب هو آلة نيل الأماني ببناء حضارة قائمة لا على العمالة البائسة، إنما على مبادئ المتعة والإيروس.

6- لكن ما الذي سيصنعه تفعيل مبادئ الإيروس؟ إنه سيخلق المباهج الحسية (الشهوات) في أشكال متعددة Polymorphous sensuality، وتلك الشهوات المتحررة من كل قيد ستبعد الإنسان عن العنف وتنصر الإيروس وتكون دعامة لبناء الحضارة الغربية المبهجة، بدلا من الحضارة الغربية الرأسمالية البائسة التي طال قمعها للإيروس / مع ملاحظة أن ماركوزه لم يقصد الشهوات الجنسية فقط، بل قصد كافة المباهج الحسية عموما، لكن تحرر الشهوات الجنسية تبعا لفرويد كان العمود الفقري لتحرير المُتع الذي يريده .(Salerno 2004)

هذا ملخص التحليل والحل الفلسفي الذي قدمه ماركوزه، وقد كان لتلك الفكرة التي نشرها في كتابه (الإيروس والحضارة) في نهاية الخمسينيات أثرا فادحا على الثورة الجنسية التي زلزلت المجتمعات الغربية في الستينيات، فقد صار بطلا شعبيًّا لشباب الثورة الجنسيَّة = (Ritzer 2007) ويؤكد البعض على أن هذا الكتاب الذي حاز شهرة ضخمة في أمريكا، كان أحد أهم المصادر الفكرية الملهمة للثورة الجنسية المضادة لثقافة الغرب الملتزمة جنسيا حينها، وعبارة (مارس الحب، لا الحرب) الأشهر على الإطلاق يمكن تتبع أصولها إلى هذا الكتاب وتلك النظرية (Salerno 2004)، مع الانتباه أن (مارس الحب) تعني بصورة أساسية الغرق في ممارسة الجنس، لكن بعبارة تربط بين الجنس والحب معا وتخفف من وطأة المعنى الثقيل!

لنناقش الآن الممارسة العملية للحب، أفكار الثورة الجنسية:

لقد رفضت الثورة الجنسية المبادئ المجتمعية التقليدية المتعلقة بالجنس، مثل ربط ممارسة الجنس بالزواج، وجعل الإنجاب هو الغرض من الجنس =فاستهدفت جعل ممارسة الجنس مطلقا مرغوبٌ فيها دون أي بُعد آخر لها، غاية في ذاتها لا وسيلة لإنجاب ولا واجبة التأطير بإطار شرعي اجتماعي أو ديني، فلا يلزم أن تمارس الجنس مع حليلة لك، ولا يلزم أن تهدف من تلك الممارسة سوى التمتع والنشوة وإشباع ملذاتك.

كذلك رفضت صناعة مثال معياري للعلاقة الجنسية، مثل: الجنس الأحادي (فرد واحد مع فرد آخر فقط) والجنس المستقيم (رجل مع أنثى فقط) = بل يمكن للفرد أن يمارس الجنس مع عدة أفراد في نفس اللحظة، وكذلك يمكنه أن يلوط مع نفس نوعه كما يشاء.

إن خلاصة رؤية رواد الثورة من تحقيق تلك الأفكار:

الإيمان بأن المباهج والشهوات الجنسية لا يجب أن يقمعها مجتمع قام بصناعة أفكاره بنفسه لنفسه، ويفرض استمرارها كثقافة مجتمعية بأدوات الضبط المجتمعي المستمرة [7] رغما عنهم =بل يجب أن يتطور المجتمع ليزيل كآبته تلك ويقتلع جذور الحرب من أعماق الإنسانية ليصل إلى المستقبل اليوتوبي المنتظر، حيث حضارة البهجة والنشوة والغرق في المباهج واللذات، بعبارة أخرى: صناعة الجنة في الدنيا لا انتظارها في السماء.

تلك هي الأسس التي بُنيت عليها أفكار الربط في علاقات توافقية أو تناقضية بين عدة مفاهيم مختلفة:

مثل الربط بين الحب والجنس وجعلهما شبه مترادفين، والربط بين الشهوات والرغبات الجنسية، وبين التقاليد المجتمعية والدينية المستقيمة المستقرة عن الجنس وجعل طلب الأول يلزم منه العداء للثاني.

والربط بين الحالة الفطرية الطبيعية وبين الحضارة ومبادئ التنظيم المجتمعي، وجعل الوصول للحالة الإنسانية الطبيعية الأولى لا يكون إلا بالتحرر الجنسي، بينما لا تعني القيود والتنظيمات الدينية والمجتمعية إلا عوامل الكبت والقمع ومصادر الكآبة والغضب.

---

(7) سنناقش مفهوم الضبط المجتمعي في مبحث آخر.

وكذلك الربط بين الانحلال الجنسي والتطور والثورة فلا تكون الثورة التطورية على المجتمعات المهترئة القديمة ولا يكون التقدم إلا بالانحلال الجنسي، وبالتالي، الربط بين انفلات الشهوات وبين البهجة الحضارية، إن نشوة الجنس (الحر) هي ذاتها نشوة الحضارة (الحرة)!

لقد مُجِّد الجنس كثقافة مجتمعيَّة موجهة لكافة أنشطته، وعلمت كافة الصناعات، التجميلية والإعلامية والتلفازية والسينمائية أن الجنس مُربح دوما. فالمرء يجب أن يلبس ما هو مُثير جنسيا، ويضع عطرا له جاذبية جنسيَّة، وركَّزت الصناعات الدوائية على فرع التجميل وكل ما يزيد الأنشطة الجنسيَّة. ثقافة كاملة تتمحور حول الجنس، وتُمجِّد العزوبية، التي نُظِر إليها أنها مرحلة المباهج والعلاقات الجنسية المتنوعة والكثيرة /وقد كان من الغريب، ظهور أصوات نسائية في منتصف الثمانينيات، تشكو بأن ثورة التحرير الجنسي تلك لم تحررهن على الإطلاق =إذ أن معيار الجاذبية الجنسية، الذي صار هو معيار المجتمع الأول، ألزمهُن بخيار واحد فقط، وهو استمرار إقامة علاقات جنسية بلا توقف، والحفاظ طوال الوقت على كل ما يجعلهن مُشتهيات ومرغوبات (Malti-Douglas 2007)

لقد صارت التقاليد التي كانت مستقرة في الثقافة المجتمعية الغربية مرادفا للرجعية والتخلف والقمع المجتمعي، وأصبح الهدف صناعة ثقافة مضادة تحاول إسقاط هذه المنظومة القيمية البالية المرتبطة بالدين والأعراف -أما الدين فلأنه التهديد الأول المعتاد =إذ لا يقوم فقط بتوريث مستمر للصورة المتزمتة عن الجنس وارتباطه بالزواج وإعمار الأرض عبر الأجيال، بل يعمل أيضا على ترسيخ تلك الصورة بجعلها مقدسة ومرتبطة بإله خالق وبمهمة مقدسة لا يجوز تلويثها بلوحات العبث الوجودي في تصورات الجنس، كما أنه وإن كان يتفاوت في وضع القيود على المباهج الحسية، من متزمت مثل المسيحية (تقصر الجنس على علاقة أحادية طوال العمر) إلى متزمت بصورة أقل مثل الإسلام (يقصره على عدد معين وصور معينة ولا يسمح بالعلاقات بين نفس الجنس) /إلا أنه تفاوت في حجم القيود ومساحات الحرية التي يمن بها التشريع، لا تفاوت في الفضل =فلا فضل إلا بالتحرر الشامل من كل قيد وشغل كل مساحات الحرية دون امتنان من أحد.

إن الأديان تحت مسمى (قمع انفلات الشهوات) تشترك في وضع القيود، وتضع هدفا مقدسا ساميا هو إعمار الأرض، إضافة لتمجيد الاعتدال وقتل المتع الحسية المنطلقة بلا قيد =فإذا سقط الدين تيسر تغيير الأعراف وتحويلها بأدوات التغيير المجتمعي مثل التشريعات القانونية والإعلام.

وقد يحدث أن تكون الأعراف أكثر رسوخا في المجتمع من المفاهيم الدينية، مثلما ترى في بعض قبائل الصعيد المصري من تقديس للدين الإسلامي وحبه والغيرة عليه، ثم هم مع ذلك لا يقبلون حكم الإسلام في عُرف الثأر الجائر (قتل من لا ذنب له ما دام ينتمي لأسرة القاتل)، فللعرف رسوخ ومكانة نفسية ومجتمعية تفوق الشعائر والأحكام الدينية، كذلك فإن الأعراف في قبائل نجد الغارقة في النظريات العنصرية المتطرفة تأخذ في بعض الأحيان صورا مناقضة للإسلام تماما وإن حاولت الاحتيال عليه، مثل رفض زواج البنات من أفراد منتمين إلى قبيلة مغايرة، أو النظر لابن القبيلة على أنه أسمى ممن لا ينتمي لقبيلة كالمنتمي إلى عائلة متمدنة؛ هذا فوق النظر لأنفسهم كعرب باعتبارهم عرقا أعلى من غيرهم =فكل تلك أعراف تستحكم في النفوس بصورة أكبر من استحكام الإسلام نفسه.

لكن الأعراف رغم رسوخها الثقيل خاصة في المجتمعات المتخلفة، إلا أنها تفتقد لعامل مهم في توطين أنفسها ذاتيا بصورة لا تتزعزع عبر الأجيال =وهو الشرعية الدينية، ولهذا حاول بعض العلماء قديما وحديثا ترسيخ النظرية العنصرية والعرقية وإلباسها تارة لبوسا علميا لعلمانية دينهم كالنازية، وتارة اجتماعيا ثقافيا يتخذ صورة العلمية مثلما فعل الشعوبيون الفرس، أو لبوسا دينيا بأدلة شرعية مثلما يفعل أصحاب نظريات التفوق العرقي الأبيض من النصارى، ومثلما فعل كثير من العرب بدايةً من العهد الأموي.

إذن صمود العرف عبر الأجيال وتحمله اهتزاز الانقلابات والثورات الجيلية والمجتمعية لا يستمد قوته الكبرى من ذاته، إنما من ارتباطه بشرعية دينية =ومن هنا تتبدى خطورة دعاوى من يحاولون مواجهة اللوطية استنادا إلى كونها تخالف الثقافة المجتمعية الشرقية، فتجد المعارض من أولئك يهتف: هذه دعاوى لا تنتمي لثقافتنا /كأنما الإشكال أن قبح اللوطية نسبي متعلق بثقافتنا لا أكثر، لا إشكال قبح مطلق للفعل في كل زمان ومكان!

نعم، يمكن أن تكون الثقافة المجتمعية خاطئة ويلزم تغييرها، وكم من ثقافة مجتمعية شرقية متجذرة في مجتمعاتنا ليس بينها وبين الإسلام صلة؛ بل تكون أحيانا مناقضة له؛ لكن الدعوى الثقافية التي تستشهد بالأعراف والتقاليد المستقرة في ذاتها، دعوى متهافتة، يمكن دحضها من قبل اللوطيين بكل يسر =ولهذا يحاول اللوطيون دائما جذب الحوار إلى تلك المساحة، بدلا من المساحة الدينية التي تستند في شرعيتها إلى قوانين كونية إلهية لا يمكن وصمها بالخطأ ولا يمكن استبدالها ولا يمكن نقدها، وإن كان بعض أذكيائهم –وإن شئت: خبثائهم!– يلعب كالمعتاد بورقة (تفسير النص) التي يتم فيها كالمعتاد اتهام

الفقهاء وكافة علماء الأمة بتحريف تفسير النصوص الشرعية المتواترة، و(فتح النص) لاجتهادات جديدة تفككه وتشكك في تحريم المحرمات وتقلبه إلى النقيض تماما /مثل أولئك الذين يدَّعون أن قوم لوط عُذِّبوا لاعتدائهم على الأضياف لا على (الفعل المثلي) بذاته! فإن تحدثت عن (نص الفاحشة) ذكر لك أنه لا يعترف بمعناها اللغوي السائد؛ مخترعا العديد من المعاني مستعملا أدوات المدارس الأدبية النقدية من تأويلية إلى تفكيكية، مستظلا بمناهج ما بعد الحداثة وقتل المؤلف! أما إن تحدثت عن السنة فالجواب أيسر من شربة الماء: أنا لا أعترف بالسُّنَّة هذه، البخاري دجال!

إن التوجيه الدعائي والإعلامي، واستغلال ميل الأجيال الجديدة إلى حب التمرد على الأهالي والتقاليد المجتمعية، خاصة مع المظالم الاجتماعية المستحكمة، وزيادة الانفصال الفكري بين الأجيال يوما وراء الآخر لسرعة التطور التقني وتيسُّر سبل التواصل الفكري =حققوا نجاحا باهرا في اختبار القدرة على تدمير الأعراف المجتمعية المستقرة، وخاصة التي لا يوجد لها أساس ديني أصيل.

كذلك بُني على الشعار الشهير (مارس الحب لا الحرب) الجامع بين الحب والجنس نموذجٌ دعائيّ كامل في تلك المراحل المبكرة، وهو ربط لن نفهم أبعاده جيدا إلا بعرض مبدأي لعلاقة الحب في الإسلام: فهي علاقة ثلاثية الأطراف /علاقة حب بين الله وبين العبدين، وبين العبدين كليهما؛ وعليه ليس في تأسيسه ارتباط حتمي بالجنس= فالمرء يحب الآخر بحسب موالاته ومعاداته للإله الحق، ومعرفة الحق لا تكون إلا بالأداة الحق: الإسلام، وعليه نشأت عقيدة الولاء والبراء، والحب والبغضاء أُقيما على هذا. أما الحب الحسي، المؤسس على الجنس؛ فله مكانه؛ لكنه ليس الأصل، وعليه لم يُقبَل من المسلم أن يتزوج مشركة وإن شغفت قلبه عشقا لحُسنِها وطبعها وأخلاقها وجسدها، وليس له أن يمسها إن بقيت على شركها –لأن الله سبحانه موجود في تلك العلاقة، وله تشريع يجب على المسلم الرضوخ إليه حبا لربه وموالاة للمسلمين =وهذا كله مناقض للإنسانوية التي ربطت بين الحب والجنس، واختزلت العلاقة المعقدة المركبة الثلاثية إلى علاقة ثنائية لا إله فيها إلا منفيا.

لقد قامت الإنسانوية بحذف الإله من المعادلة الثلاثية وأحلت جوهر الإنسان محله، وهذا النموذج هو دين الإنسانوية/الهيومانية [8]، بولائه وبرائه وطقوسه =ودليل هذا ما رأيناه من الإنسانويين المنتسبين للإسلام الذين يرفضون

(8) لم يكن علمانيو مصر الشباب أكثر قربا من الحق إلا حينما رفعوا يوما شعار (أدين بدين الإنسانية)!

إدخال كل من نفع الإنسانية، مثل ستيفن هوكنج وستيف جوبز قبله، في زمرة أهل جهنم /إن الإله، عند من يؤمن من هؤلاء بإله، ليس إلا ظلا للإله الحقيقي: الإنسان -وعليه وجوبا أن يرحم كل من دان بالإنسانوية وقام على رعايتها، ملحدا به أو غير ملحد، كما أن عليه تعذيب من كفر بها وحاربها، كالجهاديين وغيرهم.

فعلى التحقيق لا يوجد رب للعالمين مستعلٍ، الإنسانوية هي علاقة ثنائية بين الإنسان والإنسان الآخر، لا توجد علاقة ثلاثية، فلا مجال للمعاداة على أسس دينية أو عرقية أو غيرها، بل الولاء للجوهر الإنساني ذاته في كلا الجانبين، ولا معنى لبراء من إنسان آخر إرضاء لعرش فارغ فوق السماوات! لقد صيَّر الإنسان نفسه إلها، إن لم يعتدِ على الآخرين اعتداءً صريحا ظالما مؤذيا لا تأويل فيه =صنع ما شاء، لا يُسأل عما يُفعل والمؤمنون يُسألون!

ثم أنك إن آمنت بالإنسانوية جاءك السؤال: ما وجه نشر خطاب عدائي أو قمعي لتوجهات إنسانية قائمة على زيادة تلك العلاقات متانة: العلاقات الجنسية؟ ما هدف السعي إلى إصدار تشريعات تكبحها؟ إن الجنس في ذلك الفكر هو أعظم وأسمى وسائل نشر الحب بين البشر؛ ولا يمكن أن يشارك في قمعه من أجل إله متوهم ومجتمع يعيش في هذا الوهم إلا جهول ظلامي متطرف!

الحق الإنسانوي الأوحد هو أن الحب ينتصر دوما (Love wins)!

بذا تُقدِّم الإنسانوية مزيدا من الحجج لدعم الفلسفة اللوطية، فهي، من وجه، إله يمنع العقاب على الأفراد الذين يمارسون هذا النوع من الجنس ويرفض إدانتهم لتحقيقهم الهدف الأسمى: وهو جنة الحب والسعادة وحضارة الإيروس.

وهي، من وجه آخر، ترفض أن يكون هناك أي إله أو سلطان يُقيِّد علاقات حب تحقق السعادة الإنسانية بين الأفراد =فكل ما يصنع السعادة الإنسانية، وخاصة بالجنس، هو مطلوب لذاته، وهو فكر مرتبط من ناحية أخرى بالهِدونيزم ومبدأ الحصول على أكبر قدر من المتعة، لكن ذاك نقاش آخر يطول وله أبعاد في السياسة والاقتصاد وتاريخ الأيدولوجيات والفلسفات الغربية منذ الإغريق إلى الآن، لا يسعه هذا الكتاب.

فإن تدبرت كل ما سبق، أدركت بسهولة سبب نشأة الجدل الغربي المعاصر -خاصة في ألمانيا- حول مسألة (تجريم الجنس بين المحارم): إن العلاقة بين الابن وأمه أو الأخ وأخته أو الأب وابنته هي علاقة إنسانية لا يحق لمجتمع مؤسس على تقاليد قديمة أن يتدخل فيها ما دامت لا تؤذي أحدا، فما وجه منع الزواج والجنس بين هؤلاء؟

لنضرب مثلا، في عام 2014، قام المجلس الوطني الألماني للأخلاق، بالدعوة إلى إلغاء القوانين التي تحظر زواج المحارم، بعدما نظر في قضية أخ يعيش كالزوج مع أخته، وله منها أولاد =لقد أنكر المجلس في كلامه استمرار (التابوهات /المحرمات) المجتمعية، والتي منها زواج المحارم .(Dearden 2014)

ولم يجد المتمسكون بالتجريم، على أساس لا ديني علماني، إلا حجة كون الحظر يهدف إلى منع الأذى عن الإنسانية، لأن أطفال ذلك الزواج سيصابون بتشوهات خلقية أو عقلية تؤذيهم!

وتلك حجة متهافتة على تأبيد التجريم =فما وجه التحجج بها إذا قامت الأم أو الأخت مثلا باستئصال رحمها؟! ما وجه التحجج بها إذا قام الأخ أو الأب بجراحة تعقيم لا تؤذي متعته؟ ما وجه التحجج بها إذا توصل علم الأجنة إلى التدخل المبكر ومنع التشوهات؟ عليك أن (تهتم بشأنك) وألا (تحكم على الآخرين)، فالحكم يحتاج إلى معيار ثابت، والمعيار الثابت يحتاج إلى إله، والإله هنا إما معدوم =فالحق نسبي ولا معيار للحكم /وإما موجود وهو الإنسانوية =فلا مجال لتجريم ما يعزز سعادة البشر، وأوله الجنس بكل أنواعه!

إذن لا سبب لتكبيل الأشكال الجنسية المختلفة والمتنوعة، مثل الجنس الجماعي، وتبادل الزوجات، واللوطية، والجنس بين الأقارب المحرمين =إذ لا معنى لمفهوم التحريم؛ فمن المُحرِّم؟ لا وجه للحكم على أحد /خاصةً إذا انخرط في علاقة غير مؤذية تحقق أكبر قدر من المباهج والسعادة مثل الجنس!

إن المفاهيم المجتمعية التقليدية والدينية، تؤسس لفكرة أن (فطرة الإنسان) لها شكل واحد للعلاقة: زواج الذكر والأنثى. في المسيحية ذكر وأنثى واحدة، وفي الإسلام ذكر وأربع إناث بحد أقصى مع فتح المجال للمزيد من المُتَع الحسيَّة، لكن عبر قيام مؤسسة أخرى معادية للإنسانوية وهي الاسترقاق، ولا تختلف اليهودية كثيرا =فهم يجتمعون في صناعة صورة (طبيعية)

للجنس أولا، ثم في تأطير هذا الجنس داخل إطار لا يجوز الخروج عنه وهو العلاقة التي سمح بها الله زواجا أو تملُّكا =وكل ما عدا ذلك ليس إلا شذوذ شهواني مُستحقٌّ للعقاب.

يضع الخطاب الإنسانوي التحريري الأولولية للثورة على تلك المفاهيم التقليدية، التي هي من بقايا خرافات الأديان =فلابد من تحرير الجنس سواء من سلطة المجتمع أو سلطة الأديان، ثم بتحرره يتحرر الإنسان ويصنع الحضارة المُبهِجة، فالإنسان مملوء بالرغبة في الشهوات الممتعة التي تقمعها باستمرار القيود الدينية والمجتمعية، مُنشِئةً حالة الكآبة والحزن والغضب العدواني، ما يولِّد الحرب والصراع الأبدي؛ غير أن كل ذلك سينقلب رأسا على عقِب =إذا ثار الإنسان على تلك المفاهيم والمعايير والتقاليد وأطلق العنان لشهواته كيفما شاء.

من هنا جاء حبكُ أفكار الحرية، والبهجة، وإطلاق الشهوات الجنسية بلا عنان، والثورة على الدين والتقاليد والمجتمعات والأجيال القديمة المتخلفة في نسق واحد: نسق الثورة التقدُّميَّة من أجل حضارة البهجة.

وإن أردت مثالا مرئيًّا يجمع كل تلك الفكرة، فدونك فيلم يوتوبيا البونوبو.

ففي الفيلم القصير الذي لا يتجاوز الدقائق الثلاث Making Love Not War: The Wild Sexual World of Bonobos، قام صناعه بشرح (عالم الحب) الذي يمثله مجتمع قردة البونوبو، تلك الحيوانات التي تمارس الجنس طوال الوقت تقريبا: الجنس للوطي بين الذكور بعضهم البعض، الجنس اللوطي بين الإناث بعضهن البعض، الجنس بين أي فرد مع أي فرد /بغض النظر عن أي اعتبارات قرابة أو عدد أو سن! هذا هو مجتمع البونوبو المسالم جدا الذي (يمارس الحب) أبدا بلا توقف!

إن الفيلم يعرض حياة البهجة التي يطلبها الإنسان، حياة الجنس الجماعي واللوطي الذكوري والنسائي، والمُتبادِل، وكل شكل من أشكال إخراج الشهوات والمباهج! إن مجتمع قردة البونوبو هو الحلم المنشود، الذي يجعل الإنسان يتساءل: متى تنجح الإنسانية في محاكاة (يوتوبيا البونوبو) المنشودة؟!

الآن ننتقل إلى فصل آخر من قصة (حضارة البهجة)، إلى فوكو، والهجوم العكسي.

يعتبر البعض أن رؤية ونظرية ماركوزه قد فقدت صلاحيتها في الغرب، خاصة بعد نقد فوكو للرؤى الممازجة بين الماركسية والفرويدية، وينبه أن ماركوزه نفسه قد هجر أطروحته الساذجة تلك بعد ظهور وانتشار ثم انتكاس الحركات التحررية والشبابية أثناء عصر الحرب الباردة. كما أن الحركات اللوطية نفسها Homophile movement لم تنفك تنفي عن نفسها أي جذور يسارية أثناء عصر الحرب الباردة ، حرصًا على تجنب مواجهة الدولة والصدام معها أيدولوجيًّا =وكل هذا يدعم وجهة نظر من يرى أن تمثيل فكر ماركوزه للأساس الذي بُنيت عليه الدعاوي والحركات اللوطية Gay liberation movements لم يكن إلا عرضيًّا، غير مقصود بذاته، مستدلا بأقوال لماركوزه تؤكِّد على أنه ربما كان سيُصدَم حين كتابته الإيروس والحضارة، إن علم أن كتابه سيكون من أسس فكر الحركات اللوطية التحررية (.Floyd 2001)

أما ما يهمنا نحن ها هنا، هو معرفة السياق الذي ظهرت فيه تلك المفاهيم والأفكار، حتى لو تراجع عنها صاحبها فيما بعد =فقد ترسخت كأسس في الحركات والدعاية اللوطية إلى الآن، ويصعب جدا تجاهل مركزية فكر (حضارة البهجة) اليوتوبي والمبني على فكر التحرر الجنسي واللواط، أو التقليل من شأن أثر ماركوزه في غرس هذه الأيدولوجيا واعتماد البروباجندا والدعاية اللوطية عليها بصورة كبيرة جدا حتى الآن، حتى إذا كان قد تم التخلي عن الجوانب الفرويدية والماركسية في أطروحته من أجل ابتلاعها في أيدولوجيات ليبرالية وما بعد حداثية أخرى لا تتوافق مع أفكار ماركوزه الشمولية.

ولقد شُغِل الفرنسي ميشيل فوكو، الفيلسوف الفرنسي الشهير الذي أرَّخ لتاريخ الجنس في كتابه ذائع الصيت (تاريخ الجنسانية)، بنقد هذا المزيج من التحليل النفسي والماركسية الذي قام ماركوزه بتقديمه/لكن مخالفته تلك لها شكل معين، يلزم أن نتعرض له، خاصة أن كتابه كان ثورة شهيرة على الرؤية الماركوزية، مع الانتباه لمحدودية أثره مقارنةً بأثر كتاب مركوزه!

أن أول ما هوجم عليه ماركوزه من فوكو، كان (فرضية القمع) التي تتحدث عن سعي الحضارة الغربية لكبح الجنس خاصة في العصر الرأسمالي الملوث بالبروتستانتية، منذ القرن السابع عشر على وجه التحديد =فقد أثبت فوكو رواية أخرى ثرية بالأدلة أن النقيض هو ما جرى، موضِّحا اتخاذ الحضارة الغربية منذ هذا القرن تحديدا مسارا في التشجيع على (الحكي) عن الجنس بالتفصيل؛ لا العكس!

وقد كانت بداية هذا المسار في تعديلات كنسية على شكل الاعتراف الذي كان مجملا طوال تاريخ المسيحية؛ فالمُذنب كان لا يزيد حينما يأتي قِسًّا للاعتراف عن قوله (قد زنيت) أو (قد مارست اللواط)/ لكن بداية من ذلك القرن تم تغيير أسلوب الاعتراف من الإجمال إلى التفصيل =فأصبح المُذنب مُطالبا بسرد كافة ما جرى أثناء العملية الجنسية الآثمة!

يقول فوكو، أن الأدب الإباحي الجنسي لن يصل بك، إذا تتبعت جذوره، إلا لغرفة الاعترافات الكنسيَّة!

ثم يستمر بعد ذلك طوال الفصل الأول والثاني في سرد الحوادث عن تحويل الثقافة الجنسية من حكايا مغلَّفة تُروى في مجالس خاصة بلا ضابط، إلى (ثقافة عامة) يتم ضبطها مجتمعيا باللغة والمفردات ثم يتم تعميمها في مرحلة لاحقة.

كذلك يشير فوكو إلى انتقال الجنس، في القرن التاسع عشر، من حقل الأخلاق إلى حقل العلم، وقد عنى هذا الخروج رويدا رويدا من الخطاب القيمي (الديني)، خطاب الحلال والحرام والصواب والخطأ والهدف السامي -إلى خطاب (متعقلن) يبحث في النوازع ويهتم بكل تفاصيل الأفعال الشاذة ويشجع على سرد الشهوات المنفلتة الغريبة، محاولا التصنيف العلمي لتلك الأفعال والميول =وهي، بالطبع، تصنيفات لا تستند إلى منظومة قيمية أو أخلاقية أو دينية -بل تخالفهم قدر الإمكان، تميُّزا لها بزعم الحياد العلمي (تاريخ الجنسانية 2013). وفي كل هذا تعزيز للفردانية غير منكور.

إن فوكو حين ينقض سردية ماركوزه فهو لا يرفض فقط فرضية القمع الماركوزية؛ بل يرفض أداة التحليل النفسي الفرويدي – الماركسي ذاتها، ويقدم بديلا لها أداة التحليل الاجتماعي للظاهرة =فاللوطية كذلك ذات مقاربات اجتماعية و نفسية، وموطن الخلاف الرئيسي بين هذين النوعين من المقاربات هو: على من تقع المسؤولية الأكبر في تشكيل الواقع؟ المجتمع أم النفس الإنسانية؟

أما موقف فوكو من الحرية الجنسية فيجب التنبيه أنه لم يعنِ بنقضه لفرضية القمع تلك أن الحضارة الغربية تعيش في بهجة جنسية من قديم، فهو من مؤيدي المزيد من (الانفتاح)، إنما خلافه مع ماركوزه يتمحور حول ادعاء أن الشهوات كانت مقموعة حتى القرن العشرين =بينما فوكو يؤكد أنها كانت في سبيلها للانفتاح وانفلات الشهوات وتسير بإصرار في ذلك الطريق منذ القرن السابع عشر.

أما موقف فوكو نفسه من اللواط، فهو نفسه لوطي، وكان عشيقا لرجل اسمه دانيل ديفير حتى الموت، وورث ديفير منزله كزوج، وقد كان ينظر إلى اللوطية باعتبارها مُعززة للصداقة!

إن ماركوزه وفوكو لا يفترقان في المسعى الختامي كثيرا، بل كما قيل قديما: كل الطرق تؤدي إلى روما!

***

أخيرا، نعرض للمآخذ العامة على نظرية حضارة البهجة كلها، بمختلف مقارباتها، سواء ما قاله ماركوزه أو قاله غيره، في إيجاز لائق ببحثنا:

فمن تلك المآخذ، الاختزال المفزع لعوامل حركة التاريخ وصعود وانهيار الحضارات =فقد بُنيت النظرية أساسا على نظرية فاضحة الاختزال وكبيرة الادعاءات، وهي الماركسيَّة، وكذلك على فلسفة فرويديَّة خالصة تجاوز علماء النفس قبل غيرهم مزاعم كونها حقا مطلقا =فمن الماركسية أخذ فكرة الطبقات وتحليل التاريخ بالعامل المادي الاقتصادي، ومن الفرويدية أخذ مركزية الجنس كعامل مفسِّر لأكبر المشاكل في حياة البشر، فجاء الناتج كما رأينا /والحقل التحليلي السياسي أو النفسي قد فقه هذا الاختزال منذ عقود عدة، وأضاف عشرات العوامل الأخرى التي عُلِم أنها مشاركة سواء في حركة التاريخ وصناعة الواقع، أو في نفس الإنسان وردود أفعاله –بالتالي لم يعُد هذا الحل المقدم من ماركوزه، المُشيَّد على الاختزال، صالحا لمناقشة جديَّة في عالم اليوم.

كذلك يُنبئ التاريخ غير المُستقى من الدين، أن فتح الباب المطلق للشهوات الجنسية بأنواعها لم يكن يعني التقدُّم والسعادة المجتمعيَّة وإيقاف الصراع /فحضارة اليونان كانت في عموم مواطنها منفلتة، وكذا الرومانيَّة، وكانت الجواري في أغلب التاريخ يمثِّلن بابا مفتوحا لإطلاق الشهوات الجنسية دون رقيب =ولم يعنِ كل ذلك الارتباط بالسعادة المجتمعيَّة العامة والخلو من الحروب والصراعات والمشاكل! فعوامل الصراعات المجتمعية والدولية أكبر بكثير من أن يتم حصرها في الكبت الجنسي، وقد امتلأت أوروبا ذاتها بالصراعات الداخلية قبل ظهور المسيحية، حينما كانت الحياة الوثنية أكثر انفلاتا ولم تكن هناك علاقة صريحة للتقوى والفضيلة بكبت الجنس كما جرى مع المسيحية =بل وأخرجت تلك الحضارة الصراعية اثنتين من أكبر الإمبراطوريات الاستعمارية في التاريخ القديم: الهيللنية والرومانيَّة، حيث صُرِع أغلب العالم المعروف وقتها بأيدي

(حضارات البهجة) تلك! ولم تستطع أوروبا المسيحية التقيَّة محاكاة تلك النزعة الإمبراطوريَّة المهووسة بالحروب والسيطرة، إلا في عصر اضمحلال السلطة الدينيَّة واكتشاف الأمريكتين وظهور القومية ثم الإمبريالية /وغاية ما يكن أن نقوله، أن أوروبا الاستعماريَّة الصراعية حين كان الرجال يزنون ويلوطون بلا رقيب = هي ذاتها أوروبا الاستعماريَّة الصراعية حين كان الرجل لا يُمارِس الجنس إلا مع زوجة واحدة فقط! لم تصل أوروبا أبدا إلى حضارة بهجة، ولم تُبشِّر بها، بل ظلت تُصارع الأمم وتصرعهم وتقتلهم وتقتات على جهودهم لبناء الرفاهية والرخاء.

كما أن الطرح يأكل نفسه؛ فأولئك الذين لا يُحارِبون ويُبشِّرون بوقف الصراعات وإحلال اليوتوبيا والفردوس بالجنس وحده =تحميهم أقوى جيوش الأرض! وقد ظهر الهيبيز واندلعت الثورة الجنسية في أقوى بلاد الأرض، أمريكا، حيث لا يمسُّ أولئك في دعواهم وانفلاتهم وسُكرِهم ونشوتهِم أحد، لأن صواريخ بلدهم النووية موجَّهة إلى كل عاصمة في عالمهم!

وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى متعلقة بنا، نحن المسلمين، فانتشار مثل ذاك الطرح إن لم يتسبب بضرر كبير لأمريكا والغرب، فهذا لكونهم في موضع السيادة العالميَّة، وانتشار الانحلال المجتمعي لا يعني انتشاره فكريًّا بالطريقة النظريَّة التي تحدث عنها ماركوزه وأمثاله، بل يعي رجال الساسة هناك أن الدوافع الصراعية لا علاقة لها بذلك السفه والترف الفكري، وأن حيازة القوة مطلب إنساني مستقل بذاته =لكن ماذا عنا نحن، مسلمون مُهانون ومشرَّدون تمطرهم الدنيا بنيران المدافع والصواريخ، ولا يجدون ملجأً من كل ذلك إلا الله، ثم التفكُّر في أمل أن يأتي يوم يُحصِّلون فيه قوة تردع كل معتدٍ ومُغتصب، وتضع لهم قدما مرة أخرى في مُركَّب السيادة العالمية. إن انتشار ذلك الفكر، في أمة بهذه الحالة =يعني إحلالهم أنفسهم دار البوار!

ويزيد من خطورة ذلك الطرح على أمة المسلمين، أن دواعي الشغف به متوفرة لديهم أكثر من غيرهم –فهو طرح طوبوي يعدُ بمُستقبل لا صراع فيه وبسحب الشباب من الواقع الكئيب =والأمة أحوج لأي طرح يعد بالخلاص من الصراع وشبابها أحوج لغمس أنفسهم فيما يُبعِدهم عن الواقع الكالح /وهو طرح يدعم الانفلات الجنسي =والأمة مكبوتة بقيود تكبح حتى أدنى الشهوات بدعاوى رفع سن الزواج نظريًّا وأعراف غالية تمنعه عمليا /وهو طرح يُقدَّم من الغرب وينشره في إعلامه =والأمة غالبها يعبد الغرب ويُقدِّس إعلامه –فكيف لا يجد هذا الطرح آذانا مصغية فينا؟ وكيف يكون حالنا إن انتشر ذلك الفكر فقضى على البقية الباقية من صلاح مجتمعاتنا! سنكون أمة الهيبيز بلا حُماة الهيبيز!

الأس الخامس: النسبوية، وما بعد الحداثة

النسبوية، وإن كانت فلسفة قائمة بذاتها، إلا أنها أيضا عماد نظريات ما بعد الحداثة، وأثرها عارمٌ في مئات الأفكار الغربية والعالمية، وفي اليسار الليبرالي خاصة.

وسنتخيَّر الحديث عما يُوضِّحها لنا كموثِّر على المسار الفلسفي اللوطي، موضِّحين كيف كانت تلك الفلسفة أحد أسس التكوين.

ترتكز الفلسفة النسبويَّة على فكرة أن الحق لا يُمكن أن يتم حصره في فكر أو أيدولوجيا أو دين –فالحق نسبي، وما تراه اليوم محرما، ربما يصبح حِلًّا في الغد، أو هو حِلٌّ حاضر في ثقافة أخرى – (Ree and Urmson 2005) كما أن تلك الرؤية قد تمتزج مع الفلسفة التطوريَّة الباقية في حقل الأيدولوجيّات، فتنتج الزعم بأن التطور المجتمعي المستمر وتقدمه الذي لا ينتهي هو الأقدر على تحديد الصواب المناسب لكل مرحلة تاريخية.

أما تحديدُ معيارٍ للصواب والخطأ، تاريخيٍّ أبدي، مصدره دين أو فكر =فخرافة ودجل، فمن الذي يُحدِّد الشرائع والمعايير؟ أليس الإنسان؟ لقد قال السوفسطائي الأغريقي بروتاغوراس، عميد النسبويَّة، أن الإنسان هو مقياس كل شيء: وقد كان يعني بذلك، أن كل منظور ورأي لشخص، هو جيد وصحيح كأي منظور ورأي لشخص آخر (Ree and Urmson) وقد عمِد بروتاغوراس في ذلك إلى تحدي المعارف والقيم المفروضة من مصدر خارجي غير إنساني، خاصة الإله .(Thiselton 2002) وقد مرَّت الفلسفة الغربية بثلاث مراحل مع النسبويَّة، السوفسطائية الأولية، التي بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم الفكر النافي للنسبويَّة المُطلقة، وهو يمتد من عصر الفلسفة الأفلاطونية والأرسطيَّة إلى القرن العشرين، أي خلال العصر الفلسفي الوثني ثم الفلسفي المسيحي ثم الفلسفي الإنسانوي الحداثي /ثم أخيرا الإحياء بالفلسفة ما بعد الحداثية، التي أعادت السوفسطائية ومزاعم نسبويتها المعرفيَّة والأخلاقيَّة إلى الوجود مرة أخرى، وفيه أُعطي الإنسان حق تحديد كافة المعارف من جديد، دون مصدر أعلى، ولو كان المجتمع أو الأيدولوجيات أو العلماء أو المفكرين. ففلسفة ما بعد الحدثة في حقيقتها هي سوفسطائية جديدة.

الزعمُ، هو أن الإنسان قد قام باختراع الآلهة والأديان ليخلع على مُخترعاته الفكرية والثقافية صفة القداسة ويكسبها الخلود، وقد كان في اكتشاف التنوع الثقافي والمعرفي، بعلوم الأنثربولوجيا وغيرها، توهينٌ لادعاءات امتلاك الحق المُطلق – فما هو خطأ في ثقافة، صواب في أخرى، ولا مزيَّة لمجتمع دون آخر، تدفعنا لتصديقه والإيمان بامتلاكه وحده المعيار الأصوب. إن التنوع الثقافي والديني دليل على أن كل مجتمع بشري قد (اخترع) ما يناسبه من المعايير والمقدسات =واحترام الإنسان يفرض علينا احترام ذلك التنوع الثقافي والفكري، والإيمان بأن لا فضل لمعيار على آخر، ولا رفعة لثقافة على أخرى، ولا أحد يملك الحق المطلق، لا في هيئة الأفكار ولا في هيئة المعيار.

والأصولي الديني المتطرِّف، هو المؤمن بغير ذلك، الكافر بالتعددية الدينية والثقافية والنسبويَّة، والمعارض للإنسانويَّة العلمانيَّة (Macionis 2008)

أما فلسفة ما بعد الحداثة، فتُعرَّف بأنها رؤية تزعم استحالة وجود مقولات ونصوص عالمية مُطلَقة تتعلق بالقيم والتقدُّم والسببية التاريخيَّة =والاستحالة حادثة لأن كافة المعارف مُشكَّلة بتصور صاحبها لا أكثر؛ فكل معرفة تكونت لدينا متأثِّرة بالظرف الذي تلقينا فيه الحدث وفسَّرناه، مثل الظرف الثقافي وغيره =وعليه لا يمكن أن تكون المعرفة عالميَّة أو مُطلقة، إنما كل معرفة لا تكون إلا جزئية متعلقة بالموقف والحدث لا أكثر .(Callicott and Frodeman 2009)

وقد كان من آثار ذلك، التأكيد على أن دلالات الألفاظ ليست عامَّة، بل هي مجرد موروث مجتمعي وثقافي يمكن تغييره، وعليه كان الحضُّ على النظر إلى دلالة (الذكر) ودلالة (الأنثى) بصورة جديدة، التقوا فيها مع النسوية ومفهوم الجندر =فأصبح لفظ الذكر لا يرتبط في دلالته بالرجل حتما، وكذا الأنثى، كيف والدلالات ملك الإنسان المُعرِّف لذاته وهويته ونوعه الاجتماعي الذي يرغب في عيشه؟ وكما لا يحق لأحد ادعاء احتكار ملكية المعيار الوحيد للصواب والخطأ –كذلك لا يحق لأحد أن يفرض مفهومه للألفاظ والدلالة التي يريدها، على شخص آخر.

ماذا يعني ذلك في حياتك اليومية؟ يعني أن اعتقادك كون الفعل (كذا) حلال أو حرام، أو صواب أو خطأ =ناتج من ثقافتك وبيئك الاجتماعية التي نشأت فيها، وواجبك أن تعترف بهذا وتحتفظ باعتقادك ذلك لنفسك /أما إن حاولت فرض معيارك هذا على غيرك، أو حتى محاكمة أفعاله إلى ما تؤمن به من قواعد وقوانين =فبغيٌ وافتراءٌ وتعدٍّ على إنسانيته ومعتقداته

=وهذا ليس من حقك أولا، وغطرسة دوغمائية أصولية متطرفة منك ثانيا: لأنك لا تؤمن بنسبية الحق ولا تعترف بأن الحقَّ لا معيار له.

والمثال العملي، هو في حكمك على الخنِث، فأنت تصرُّ على توصيفه بمعيار يُلزِم الارتباط بين الذكورة والرجولة -وهذا هو معيارك أنت، وهو، فوق أنه معيار متخلف قديم من بقايا عصور ما قبل التاريخ، =لا يؤمن بانفصال دلالات الألفاظ وبحقِّ الإنسان أن يفسر اللفظ ويُحمِّله ما شاء من معنىً.

فالخنِث يسمي نفسه امرأة ويريد من المجتمع أن يعامله كامرأة ولا يناديه إلا بأدوات التأنيث، والخنِثة تسمي نفسها رجلا وترفُض من المجتمع نداءها بغير أدوات التذكير =وهم أحرار فيما يريدون وعلينا احترام حرية اختيارهم ووضع معاييرنا في منزلنا، وعلينا الإيمان بمعايير مجتمع المستقبل، التي تُعزز نسبوية الحق ونسبوية المعاني والألفاظ، وتفتح الأبواب واسعةً للتعددية الثقافية والفكرية والجندرية.

هذا هو مختصر أثر ما بعد الحداثة والنسبوية -ويتبقى نقاشٌ أخير:

- إن الإيمان بالنسبويَّة، هو وهم، مُتناقِض، نعاين آثره كل يوم: فالذي يؤمن بنسبويَّة الحق والأخلاق والقيم والأديان، وبأن إيمانك بمعيار ونموذج تحاكم إليه الناس هو خطأ وتعصُّبٌ وانغلاق =يعتبرك ضالًّا مُضِلًّا، لأنك تُخالف (معياره) الذي لا يوجد فيه حق مُطلق ولا صواب مُطلَق ولا مِعيارٌ أبدي للمعرفة! إذن هو نفسه يملك مِعيارًا يقيس سلوكك وعقائدك عليه، فإن خالفته هاجمك وآمن بأنك من المفسدين! وهو نفسه يؤمن بوجوب النهي عن المُنكَر الذي تصنعه بسلوكك الناتج عن عقيدتك وإيمانك وأصوليتك المتطرفة، وأمرك بالمعروف الذي هو الصواب الإنسانوي من وجهة نظره ومعياره، ودعوتك إلى اتباع مذهبه النسبوي، وعدم الرضا عن مذهبك اليقيني الدوغمائي! ذاك التناقض الذي لا يرتفع هو أشهر ما يواجه النسبية ويُذيبها في لحظة، ولا مفر منه! فالنسبويَّة تضع هي ذاتها معيارا تحاكم إليه الناس! وإن شئت الصدق أكثر، قلت أن النسبوية غير موجودة في الواقع على التحقيق، وليست إلا آلة فلسفيَّة موطِّئة لتمكين فلسفة مضادة عن طريق تفكيك سابقتها =فلا توجد نسبويَّة في القوانين مثلا، بل التشريعات مُلزِمة، ولا يحق لأحد أن يطلب الإفلات من العقاب مثلا في ولاية أمريكية، لأنه تزوج بقاصر، حتى إن كانت الولاية التي ينتمي إليها لا تمنع ذلك. فلكل ولاية تشريعاتها المُلزِمة والتي يجب على المقيم فيها احترامها وإن لم يؤمن بها.

– ويُلزِم تطبيق النسبويَّة اللوطي بتناقضات أشنع، عند تطبيقها في كافة المجالات، وقد حدث هذا في حالات ننتقي منها ثلاثة فقط، لندرك حجم سُخف ذلك الزعم:

– ففي الولايات المتحدة الأمريكية، قام شخص أبيض يدعى Ja Du بتعريف نفسه أنه (ترانس راسيال Trans Racial /عابر للعرق)، مؤكِّدًا أنه أعاد تعريف عرقه ليصبح فيليبينيًا! وله مجموعة مؤيِّدة مُشابِهة، تُنكِر العرق الذي ولدت به، وتؤكِّد أنها أعادت تعريف عرقها وتحديد هويَّته ليصبح عِرقا آخر، وبناءً على أساس الهوى المحض والراحة الشخصية لا غير، فقد سمع (جا) عن الأكل الفليبيني وعادات الفليبينيين، وقرر أنه سيصبح من العرق الفليبنيني بناءً على هذا! (Salo 2017) وقد كان (جا) مسبوقا بامرأة بيضاء، هي Rachel Dolezal التي ظلت لعشر سنوات تُعرِّف نفسها بأنها (امرأة سوداء) لا بيضاء، داعيةً المجتمع إلى الاعتراف بالترانسراسيال، كما اعترفوا بالترانسجندر (الخِناث) Pasha-Robinson (2017).

ولنتوقف لحظة عند حديث رِتشيل، الرئيسة السابقة لإحدى المنظمات الحقوقية المساندة للسود، فهي أكثر تماسكا من الترانس (جا). تقول للصحافة: إن الجندر ليس ثنائيا (ذكر وأنثى)، بل ليس حتى بيولوجيا (بناءً على العضو الجنسي) =أما ما صدمني حقًا، هو أن العرق أيضا ليس بيولوجيًّا! إن ما أدعو إليه هو أن يكون العرق سائلا هو الآخر Racial fluid، بنفس الطريقة التي سُمِح بها للجندر بأن يكون سائلا [9] . Gender Fluid ولرتشيل منطق: فالعرق حقا مفهوم أكثر سيولة من الناحية البيولوجية من الجندر، وما دمنا قد أسلنا الجندر وقبلنا بهذا فلماذا نرفض نفس الأمر مع العرق؟

تقول رتشيل: "إن العرق كذبة، إذًا كيف نكذب حول كذبة؟!".

– الحالة الثالثة، إميل راتلباند، عجوز في التاسعة والستين مفتون بالتفكير الإيجابي، قام برفع قضية لتخفيض عشرين عاما من عمره دُفعةً واحدة. يقول إميل: "إننا نعيش في زمن يمكن فيه تغيير الاسم والجندر –فما الذي يمنع تغيير العمر أيضا؟" (BBC.com 2018).

---

(9) سيولة الجندر Gender Fluid هو مصطلح يُطلق على الحالة التي تسعى إليها النظرية اللوطيَّة في صناعة المجتمع، وفيها يكون مسموحا لكل إنسان أن يُغيِّر جندره ويعيد تعريفه، كأن يحول هويته من ذكر إلى أنثى والعكس، بغض النظر عن الحالة الفسيولوجيَّة.

- ما الذي يجمع تلك الحالات كافَّةً؟ إنه إنكار محسوس مُشاهد بمحض الهوى والإحساس الداخلي، تماما كما يفعل الخِناث اللوطيون /فلماذا يُنكر الناس التزام اللوازم؟ أليست النسبويَّة هي الحق، والإحساس الداخلي للإنسان هو فقط المُحدد لأول عناصر تكوين هويته في تلك الدنيا وأشدها وضوحا، ألا وهو العنصر الجنسي =فما معنى التعصب ضد النسبويَّة في العمر والعرق كذلك؟ بل إن مفاهيم العمر والعرق أقل وضوحا وأكثر نسبية من العنصر البيولوجي الجنسي؛ وإن كان الجنس هو أكذوبة مُجتمعيَّة وتاريخيَّة كبرى، فلماذا لا يكون العمر والعرق كذلك؟ إن هذا سيدعونا إلى آفاق جديدة من (التنوع): فلماذا لا تنفصل الدوال في تعريف الإنسان ذاته، فيُعرِّف أحدهم نفسه بأنه سمكة أو طائر لقلق؟ إن لجأنا للعلم فالتشريح لا يعترف بغير النوعين مع وجود حالة ثالثة مُركَّبة فيها خلل وهي الخنثى، فلا يمكن التحجج بالعلم، ولن يبقى إلا الفكر والنفس =وهنا لا يصبح هناك معنى لمنع من يعرف نفسه بأنه سمكة أو طائر لقلق!

***

بذا تنتهي الأسس الفلسفيَّة الخمس الكبرى، ويتبقى فقط ذِكر موجز لبعض العوامل التي ساهمت بصورة عرضية، غير مباشرة غالبا، في صعود الحركة اللوطيَّة:

عوامل الصعود اللوطي، أولا: عامل التقدم الطبي.

هذا أحد العوامل القويَّة في تنامي الظاهرة اللوطيَّة، من ثلاث جهات:

الأولى: جهة تطور جراحات التجميل، ويُسرها ورخصها مقارنةً بالماضي، وذلك شجَّع على أمرين، الأوَّل توحيد مقاييس عامة للجمال الأنثوي والذكوري يُمكِن الوصول إليها صناعيًّا، واعتياد الناس على تلك الصور الصناعيَّة ودخولها ثقافتهم كأنها طبيعية، ومثال هذا ما نراه من توحيد مقياس جمال العرب في جمع من المغنيات الشاميات واللبنانيات، فيما وصفه البعض بصورة نانسي أو هيفاء: الأعين الزرقاء، والشفاة الدقيقة المرسومة المنفوخة، والأنف الدقيق، والذقن الرقيق =وكل ذلك نجح جراحو التجميل في تثبيته كمعيار للجمال في أذهان الناس، حتى طمح بعض اللوطيين والخِناث العرب فيه، فقاموا بإجراء جراحات تجميلية صاروا بعدها فعلا يشبهون ذلك النموذج المعياري. والأمر نفسه يظهر بصورة أكثر تنوعًا في الغرب، حيث يقوم اللوطيون والخِناث بالخضوع لما يُسمى بجراحة تأنيث الوجه Facial feminization surgery أو MTF وهي اختصار لمصطلح (من ذكر لأنثى) =وفيها يقوم الجرَّاح بإجراء تعديلات متفاوتة العُمق في وجه الرجل ليصبح أنثويًّا، وهي جراحات بدأت منذ الثمانينيات ومستمرة إلى الآن /وكذا أصبح للوطيَّة القدرة على تحويل وجهها لذكوري بجراحة أخرى تسمى بجراحة تذكير الوجه Facial masculinization surgery أو FTM.

الثاني: أنه شجَّع على عمليات التحوُّل المظهري للجنس آخر، وغلق باب العودة، بصورة أكبر، لرخص الأسعار في بعض الأماكن /فإن كانت جراحة تشكيل مِهبل صناعي للوطي الخنِث، تتكلف حوالي اثنى عشر ألف دولار، وجراحة زرع ثدي، تتكلف حوالي ستة آلاف دولار، وجراحة كاملة لتأنيث الوجه أو تذكيره، تتكلف في أقصاها ما يقارب الواحد وعشرين آلاف دولار، وتُقدَّر قيمة الجراحات الكليَّة ما بين الواحد وأربعين ألف دولار إلى مئة ألف دولار، فإن تايلاند توفِّر ذلك كله بأسعار تراوح العشرة آلاف دولار فقط (.(Taylor 2015كما أنه ثمَّت دفعٌ دائم من المجتمع الحقوقي الغربي نحو

الدولة كي يكفُل التأمين الصحي للمواطنين إجراءهم تلك الجراحات مجانا بمؤسسات طب التعديل الجندري، مثل مركز فيلادلفيا الطبي لجراحات الترانسجندر /وبذلك تتحمل الدولة تكاليف تخنيث مواطنيها.

الجهة الثانية: جهة تطور جراحات (إعادة تشكيل الجنس) للأفراد.

جراحات إعادة تشكيل الجنس Gender reassignment surgery هي فرع من الجراحات التجميليَّة التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة، لكنه فرع مُختصٌّ بالأعضاء الجنسية تحديدا، حيث يقوم الأطباء بصناعة مِهبل صناعي للوطي الخَنِث، وتركيب عضو ذكري صناعي للوطيَّة الخَنِثة، مع زرع أثداء للوطي وإزالة أثداء اللوطيَّة.

لنضرب مثلا بجراحة ال Vaginoplasty، وهو مصطلح عام لكل جراحة تُعدِّل في المِهبل، سواء بصناعة ممر له عند المواليد الإناث الذين يُعانون تشوها يُغلق المِهبل، أو النساء اللواتي تعرضن لتشوه مهبلي نتاج مرض أصبن به، وهو داخل فيما وصفه الفقهاء المسلمون بالرَّتقِ والقَرَنِ /ثم أنه كذلك دالٌّ على الجراحة التي تقوم بصناعة مهبل صناعي للوطيّ، وله عدة طرق سأتخيَّر منها ما يُناسِب الإيجاز، وتكفي في ذات الوقت لإدراك حجم التقدُّم الحالي لتلك الجراحات وخطورتها، وهي طريقة ال :Penile inversion

1- يقوم الجرَّاح بقطع القضيب والخصيتين وإزالتهما، وإعادة توجيه الإحليل ليكون مخرجه فتحة صغيرة تحت المهبل الصناعي، مُماثلةٌ لعضو الأنثى (وتلك الخطوة الأوليَّة مشتركة بين كافة طرق جراحة المهبل الصناعي).

2- يقوم بإزالة الجلد المُحيط بالذكر، ثم يقلبه كي يصنع منه أنبوبا داخليًّا، هو القناة المهبليَّة.

3- بعد صناعة القناة، تؤخذ القلفة، لصناعة بظر صناعي، ويؤخذ كيس الصفن، لصناعة شفري المهبل.

بذلك تنتهي الجراحة، مع احتمال الاحتياج لأخرى، لعلاج أحد المضاعفات الشهيرة لها، المتمثلة في حدوث فتحة بين المستقيم والمهبل الصناعي، وهي حالة تسمىVaginal-rectal fistula ، تجعل البراز يخرج من الفرج الصناعي / وكذلك يحتاج الخَنِث الزيوت والمزلِّقات لتيسير عملية الممارسة الجنسية مع شريكه الذكر .(Rinzler 2009)

الجهة الثالثة: تطوُّر العلاج الهرموني، الذي يقوم بتحفيز إظهار الصفات الثانويَّة للخنِث: مثل أن ينمو ثدييه إلى حجم مماثل للأنثى بمجرد أخذ الهرمونات، دون جراحة، وكذلك تغير نمو الشعر وأماكن تجمع الدهون في الجسم، حتى يصبح الخنِث، خاصة إن تعرض للمعالجة الهرمونية في سن مبكرة، امرأةً لا تكاد تجد فيه اختلافا عن النساء في النعومة البضة وتراكم الدهون في الثديين والمؤخرة /وتصبح الخنِثة من الناحية الأخرى مماثلة للذكر، ينمو لديها الشعر الكثيف في وجهها وباقي الجسد.

إن تلك التطورات الطبية الضخمة، التي تعِدُ بمزيد من الفتوحات والنجاحات في المستقبل، وبالمزيد من خفض الأسعار =تلعب دورا هاما في إشاعة اللوطيَّة عن طريق تيسير التحولات المُثيرة للوطيين، من الناحية الجسدية، ما يمنحهم أفضليَّة على غيرهم من اللوطيين العاديين في القدرة على اجتذاب المزيد من الناس لممارسة اللواط معهم، حتى ثارت نقاشات حول ما إذا كان يمكن وصف الرجل الذي يلوط في خنِث بأنه لوطي حقا /فاللوطي عندهم لا ينجذب لجسد النساء، بينما الخنِث يمتلك جسد أنثى متفجرة، وإذا قام بصناعة الفرج الصناعي لم تكد تملك تفريقه عن النساء إلا بصعوبة =فكيف يوصف الذي ينجذب لمثل ذلك بأنه لوطي؟ وكذا الأمر في الخنِثة التي أجرت جراحات التذكير والعلاج الهرموني، إذ تصبح ذكرا في كل شيء إلا العضو الذكري، وهذا يعملون على المزيد من الارتقاء بجراحات زراعته كي تكون الخنِثة مالكة لآخر ما يمنع تحولها لذكر صناعي بصورة أرخص تكلفةً من الموجود حاليا![10]

***

(10) ولك أن تُفكِّر وتتأمَّل، ماذا سيصنع الخنِث في مجتمع المسلمين عامةً والعرب خاصةً، بجسده الأنثوي وشهوته في إيقاع الرجال والشباب، وضمان عدم الحمل وعدم الخوف من الأهل أو المطالبة بزواج! إن الأمر سيصبح أشد وطأةً من انفجار نووي في المجتمع!

ثانيا: وقوف الحروب في الغرب وشيوع التخنُّث، عصر الرفاه.

ذاك عامل من العوامل التي فكرت فيها، يحتاج مني دراسة أوسع وأضخم، ليس ها هُنا محلَّها، كما أنه قد يُشكلُ عليه كذلك ببعض ما يطيل الرد عليه، لكننا نذكره مختصرا.

خلاصة هذا العامل، في رأيي: أن إيقاف الحروب وانتشار الترف والرفاه في الأمة، يُشجِّع على ظهور أجيال، رجالُها أكثر ابتعادا عما يشدُّ عودهم، ويقوي نفوسهم، ونساؤها، أكثر تسلُّطًا على الرجال، وأكثر اعتقادا بأن لا فارق حقيقي بين الجنسين؛ فالكل في الدّعة سواء =وهذا يؤدي بالتالي إلى انتشار قيم التخنُّث في المجتمع، وكذا أفكار النسويَّة.

ولعل هذا يُفسِّر سبب الشيوع الضخم الحالي لأفكار النسويَّة واللوطيَّة، والذي إذا تتبعته وجدته يكاد يتمركز في دول الرفاهية، دول الغرب التي أوقفت الحروب فيما بين بعضها البعض بعد الحرب العالمية الثانية وظهور القنبلة النووية بشكل خاص، وطوال ما يقارب القرن حاليا، وهو حدثٌ غير مسبوق بتلك الصورة في تاريخ الإنسانيَّة عامَّة /فحسب تلك الرؤية التي تُنبِّه للربط بين وقف الحروب وشيوع قيم الترف والرفاه في المجتمع، وبين شيوع قيم التخنُّث والتنسون =يكون تفسير الصعود غير المسبوق للوطيَّة والنسويَّة، هو الوقف غير المسبوق للحروب.

وإذا صح ذلك العامل، يكون أثره على العالم الإسلامي، الواقع في الاحتلال الناعم، الخفي، احتلال الوكالات، فادح الضرر =فإن كان الغرب قد أوقف الحروب وأشاع قيم الرفاه المجتمعي، فقد حدث هذا بعد سيادته وحيازته كافة أسباب القوة /أما الشرق المسلم فهو يُشيع قيم الغرب، بآلة العولمة خاصةً، بينما هو غارق في التبعيَّة والضعف!

وقد يرد على ذلك العامل إشكالين: الأول، أن اللوطيَّة وُجِدت في مجتمع الساموراي المُقاتل العسكري، وكذا في الحضارة الإغريقية العسكرية ثم الرومانية، حتى قيل بأن الإسكندر المقدوني ذاته كان يلوط، وقيل على يوليوس قيصر أنه رجل كل امرأة، وامرأة كل رجل، كما كان ديوّثًا يأخذ زوجات قياداته، ولا يغار إن فعلت زوجته المثل =ومع هذا كان من أقوى العسكريين في التاريخ. كذلك قد يُقال أن الغرب بنسويَّته ولوطيته يزداد قوة وسيطرة، بينما الشرق المسلم يزداد ضعفا وتبعيَّةً؛ فلو حدث الربط يلزم من ذلك أن اللوطيَّة والنسويَّة صنعا أكبر قوة عسكريَّة في التاريخ.

ومثل تلك الإشكالات تحتاج، كما أوضحت، لاستعراض وبحث طويل، لكنني لا أتركها دون رد موجز عليها، فأقول: أن الاستشهاد بالساموراي وكافة النماذج التي جمعت بين اللوطيَّة والتخنُّث وبين القوة العسكريَّة، هو استشهاد بالشاذ النادر في التاريخ الإنساني على قاعدة عامة، كما أن الإمبراطوريَّة الرومانيَّة ظلت حضارة عسكريَّة تهتم بقيم الأسرة حال صعودها وإن انحدرت في أعصرها المتأخرة مع اضمحلال أخلاقيات المجتمع كله، وقد تنبه لذلك الإمبراطور الروماني أُغسطُس، وحاول إعادة الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة إلى صوابها بقوانينه الشهيرة التي بقيت حتى بداية العصر المسيحي، وفيها حرَّم الزنا والفجور، وسمح للأب بقتل ابنته الزانية، بل وقتل شريكها معها، وكذلك سمح للزوج بقتل زوجته وعشيقها، وشجَّع على الزواج، بعدما كان مهجورًا في الطبقات المترفة العليا تحديدا، وأعطى مكافآت لمن يتزوج =فالقول بأن الحضارة الرومانيَّة كانت حضارة خنا وفجور وزنا ولوطيَّة، غير صحيح بذاك الإطلاق؛ فهي لم تكُن كذلك حال صعودها، وارتبط انتشار ذلك ببدء الاضمحلال وإن ظل لقرون، وقد انتبه أمثال أغسطس لوجوب استعادة لحظة الصعود بإنهاء مظاهر الفجور المجتمعي.

أما اليابان، فقد شهدت صعودها الأكبر في عصر سادت فيه قيم الصلاح المجتمعي، النصف الأول من القرن العشرين، وقد ظلت قيم الأسرة والفضيلة هي السائدة دائما في المجتمع الياباني وإن شوشها عدم تحريم اللواط والنظر إليه باعتباره آلية لتوثيق الروابط بين بعض الرجال.

وهذا كله مع ملاحظة أن الربط حقيقةً هو بين (آثار) وقف الحرب، و(شيوع) قيم الفجور والزنا والنسويّة واللواط، لا بين العسكريَّة مُطلقا، وبين اللواط والزنا.

وعليه يكون القول بأن القيم المُجتمعيَّة الغربيَّة، مع انتشار اللوطيَّة والنسويَّة، هي أقوى من القيم المجتمعيَّة الإسلاميَّة المعاصرة =زعم فارغ، ويطول الرد عليه /هذا والشرق المُسلِم الضعيف المُنهار عسكريا، لا يُمثِّل إلا القليل من قيم الإسلام الكبرى.

كما أن القول بأن الحضارة الغربيَّة قد (صعدت) إلى الريادة بالنسويَّة واللوطيَّة، هو محضُ خرف وجهل =بل صعدت الحضارة الغربيَّة إلى المقدمة وسحقت الجميع، في القرون الخمسة الأخيرة، ولم تسُد فيها قيم النسويَّة واللوطيَّة إلا في القرن الأخير وحده، وهو في الحقيقة عصر حفاظ على السيادة بإفقار العالم وتمكين الغرب من رقابه =فلا يُقال بأن لزوم ربط

اضمحلال الحروب باللوطيَّة والنسويَّة، يعني صِحَّة موقف الغرب، بل العكس هو الصحيح، إذ أن عصور ظهوره وصعوده وسيادته وتمكُّنه كانت أعصر قيم الأسرة وبقايا المسيحية من كراهية اللواط وتحريمه هو والزنا، قبل أن تنتصر قيم الأديان العلمانيَّة وتُصبِح الأقوى والأسوَد في مُركبات أديان الدول الغربيَّة [11].

ذلك هو نِقاشُ ذلك العامل بإيجاز، ولعلي أعود إليه يوما لبحثٍ ونقاشٍ أوسع.

***

(11) إن شاء الله، سأناقش (مُركَّب دين الدولة) ومفهوم الأديان العلمانية والإلهيَّة في كتاب آخر أعمل عليه حاليا.

ثالثا: انتشار الإتخامِ من الجنس.

وذاك عامل آخر، نوقِش في الأدبيات الإسلامية من قبل، وخلاصته أن الانفتاح الجنسي يدفع للتخمة من الجنس الطبيعي، ويوجِّه الإنسان، بطبيعته الإنسانية الشرِهة، إلى أشكال مختلفة للمتع الجنسيَّة –وهنا تكون اللوطيَّة شكل من أشكال الاستزادة وإشباع الشره.

وقد يُعزز تصحيح هذا العامل وقبوله، أن اللواط ارتبط انتشاره في العصر الإسلامي بحركة الاستزادة من الرقيق بصورة كبيرة، وانتهاء المشكلة الجنسيَّة الطبيعية من المجتمع سواء بتعدد الزوجات أو بالرقيق، وهذا كله، وإن لم يكُن هو العامل الأوحد لظهور اللواط في المجتمع حينها، إلا أنه كان من الأسباب بلا شك.

كذلك نلحظُ أن الصعود اللوطيّ في العصر الحديث مرتبطٌ بعصر الثورة الجنسيَّة، كما ذكرنا قبلا، وقد انتشر اللواط بكثافة أكبر مع حالة الفوضى الجنسية (فوضى الحب) وإتخام الناس بالمحتوى الجنسي الطبيعي، حتى أن أثر الأفلام الجنسية، صناعة البورن، في الأشخاص الذين لا يمارسون الجنس، صار صانعًا للتخمة من الصور الطبيعية للجنس كذلك، فنجد حتى الإنسان الذي لم يُمارس الجنس في حياته، يتوجه لرؤية المزيد من الأشكال غير الطبيعية والشاذة من الجنس، وهو ما رأينا مشاكله وآثاره بعد الزواج، إذ لا يكتفي ولا يرضى.

فالتخمة من الجنس، ألعن أثرا في المجتمع، وأقوى على نشر اللوطيَّة فيه، من الكبت، الذي قد يدفع للوطيَّة من اتجاه آخر، اتجاه البحث الجنسي عن العزيز المفقود، أي الجنس الآخر، في الجنس المُتاح للمُخالطة =وكلاهما تطرُّفٌ وسوء.

بذا ينتهي الباب الأول، المدخل، ونبدأ في استعراض أثر الجوانب المتعددة للوطيَّة على واقعنا في الأبواب القادمة.

***

ببليوغرافيا

1. Abercrombie, Nicholas , Stephen Hill, and Bryan Stanley Turner. The Penguin Dictionary of Sociology. Fifth. Penguin Books, 2006.

2. BBC.com. Dutchman, 69, brings lawsuit to lower his age 20 years. 11 8, 2018. https://www.bbc.com/news/world-europe-46133262 (accessed 11 10, 2018).

3. Bruce, Steve , and Steven Yearley. The SAGE Dictionary of Sociology. SAGE Publications, 2006.

4. Callicott, J. Baird, and Robert Frodeman. Encyclopedia of environmental ethics and Philosophy. MACMILLAN, 2009.

5. Dearden, Lizzie. German ethics council calls for incest between siblings to be legalised by Government. 9 24, 2014. https://www.independent.co.uk/news/world/europe/german-ethics-council-calls-for-incest-between-siblings-to-be-legalised-by-government-9753506.html (accessed 11 3, 2018).

6. Floyd, Kevin. "Rethinking Reification: Marcuse, Psychoanalysis, and Gay Liberation." Social Text (Duke University Press) 19 (2001): 103-128 .

7. Macionis, John. Sociology. 12. Prentice Mall, 2008.

8. Malti-Douglas, Fedwa. Encyclopedia of Sex and Gender. Thomoson Gale, 2007.

9. Pasha-Robinson, Lucy. Rachel Dolezal: White woman who identifies as black calls for 'racial fluidity' to be accepted. 27 3 2017. https://www.independent.co.uk/news/people/rachel-dolezal-white-woman-black-racial-fluidity-accepted-transracial-naacp-a7653131.html (accessed 11 10, 2018).

10. Ree, Jonathan, and J. O. Urmson. The concise Encyclopedia of western philosophy. 3rd. Routledge, 2005.

11. Rinzler, Carol Ann. The Encyclopedia of Cosmetic and Plastic Surgery. Facts On File, 2009.

12. Ritzer, George. The Blackwell Encyclopedia of Sociology. Blackwell Publishing , 2007.

13. Salerno, Roger A. Beyond the Enlightenment: Live and thoughts of social theorists. Praeger Publishers, 2004.

14. Salo, Jackie. Transracial' man was born white, identifies as Filipino. 13 11 2017. https://nypost.com/2017/11/13/transracial-man-was-born-white-identifies-as-filipino/ (accessed 11 10, 2018).

15. Sekulic, Dusko. "Social Change." In The Blackwell Encyclopedia of Sociology, edited by George Ritzer, 4368-4372. Blackwell Publishing, 2007.

16. Taylor, Chris. Transgender Surgery Can Cost More Than $100.000. 29 10 2015. http://time.com/money/4092680/transgender-surgery-costs/ (accessed 11 10, 2018).

17. Thiselton, Anthony C. Encycloedia of the Philosophy of religion. Oneworld, 2002.

18. Turner, Bryan Stanley. The Cambridge Dictionary of Sociology. Edited by Bryan Stanley Turner. Cambridge University Press, 2006.

19. VandenBos, Gary R., ed. APA Dictionary of Psychology. Washington: American Psychological Association, 2015.

20. أندرو هيود. مدخل إلى الأيدولوجيات السياسية. الأولى. ترجمة محمد صفار. المركز القومي للترجمة، 2012.

21. أورزولا شوي. أصل الفروق بين الجنسين. ترجمة بو علي ياسين. اللاذقية: دار الحوار، 1995.

22. شارلوت سيمور-سميث. موسوعة مصطلحات علم الإنسان. الثاني. تحرير محمد الجوهري. ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009.

23. ميشال فوكو. تاريخ الجنسانية: إرادة العرفان. ترجمة محمد هشام. أفريقيا الشرق، 2013.

24. ميل تشيرتون، آن براون. علم الاجتماع: النظرية والمنهج. ترجمة هناء الجوهري. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012.

25. نصر محمد عارف. نظريات التنمية السياسية المعاصرة. القاهرة: دار القارئ العربي، 1993.

***